القِيَم وخصائص الاقتصاد الإسلامى

١ - اقتصاد ربَّانى .

٢ - اقتصاد أخلاقى .

٣ - اقتصاد إنسانى .

٤ - اقتصاد وَسَطى .

obeikandl.com

obeikandl.com

القِيَم والأخلاق فى الاقتصاد والمعاملات الإسلامية

● **تمهيـــــد :**

إذا تحدثنا عن « القِيَم والأخلاق » فى الاقتصاد والمعاملات الإسلامية ، برزت أمامنا قِيَم رئيسية أربع ، هى : الربَّانية ، والأخلاقية ، والإنسانية ، والوَسَطية .

وهذه القِيَم تمثل الخصائص الأولى للاقتصاد الإسلامى ، بل هى - فى الواقع - خصائص مشتركة ، تتجلى فى كل ما هو إسلامى .

فهى من خصائص الشريعة الإسلامية ، وهى من خصائص الحضارة الإسلامية ، وهى من الخصائص العامة للإسلام كله .

ومن هنا نقول بكل ثقة واطمئنان : إن الاقتصاد الإسلامى يتميز بأنه « اقتصاد ربَّانى » ، وأنه « اقتصاد إنسانى » أيضاً ، كما أنه بلا ريب « اقتصاد أخلاقى » ، و« اقتصاد وَسَطى » . وهذه المعانى أو القِيَم الأساسية الأربع : لها فروعها وثمارها وآثارها فى كل جوانب الاقتصاد والمعاملات المالية الإسلامية : إنتاجاً واستهلاكاً ، وتداولاً وتوزيعاً ، فكلها مصبوغة بهذه القِيَم ، مُعبِّرة عنها ، مُؤكِّدة لها ، وإلا لم تكن إسلامية إلا بالتظاهر والادعاء .

وينبغى علينا هنا - قبل أن ندخل فى التفصيلات - أن نُلقى بعض الضوء على هذه القِيَم أو هذه الخصائص ، ونتحدث عنها واحدة واحدة ، بادئين بأولاها ، وهى « الربَّانية » .

فما معنى « الربَّانية » هنا ؟ وما معنى أن الاقتصاد الإسلامى « اقتصاد ربَّانى » ؟!

وهل تدخل الربَّانية - وهى معنى روحى رفيع شفيف - فى المجال الاقتصادى ، وهو مجال لا يتعامل إلا مع المادة ، ولا يفهم إلا لغة الأرقام ، ولا يتحدث إلا عن الربح والخسارة ، ولا هم لأهل هذا المجال إلا ابتلاع السوق ، وهزيمة المنافسين ، واقتناص المال بأى وسيلة ، وتحقيق أكبر عائد من الربح أو الريع أو الفائدة ، بغض النظر عن الأساليب التى تُتبع ، والطرق التى تُسلك ؟؟

وهذا كله صحيح فى الاقتصاد الذى نعرفه ، والذى أخذناه عن الغرب ، والذى لا يعرف إلا المادة والمنفعة ، ولا سيما المنفعة المادية الفردية الدنيوية العاجلة ، ولكنه ليس بصحيح قط بالنظر إلى اقتصاد إسلامى ، تميَّز بأهدافه ووسائله ومفاهيمه وقِيَمه عن الاقتصاد الغربى الوضعى ، الذى لا يرجو لله وقاراً ، ولا يجعل للآخرة اعتباراً .

ولنشرع فى بيان القيمة الأولى أو الخصيصة الأولى للاقتصاد الإسلامى وهى «الربانية » .

* *

اقتصاد ربَّانى

الاقتصاد الإسلامى - كما أشرنا - يتميز بجملة خصائص .

فهو اقتصاد ربَّانى ، أخلاقى ، إنسانى ، وَسَطى .

● **ربَّانية المنطلقات :**

١ - هو ربَّانى ، لأن منطلقاته من الله ، وغاياته إلى الله ، ووسائله لا تحيد عن شرع الله .

فالأنشطة الاقتصادية - من إنتاج واستهلاك وتبادل وتوزيع - مشدودة إلى المبدأ الربَّانى ، وإلى الغاية الربَّانية .

فالإنسان المسلم ينتج استجابة لأمر الله : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ (١) .

ولهذا يشعر حين يزرع أو يغرس أو يصنع ، أو يحترف أو يتاجر : أنه يتعبد بعمله لله ، وكلما زاد من إحسان عمله ، كان أتقى لله ، وأقرب إليه .

وهو حين يستهلك ويأكل من طيبات الحياة ، يستجيب كذلك لأمر الله ، فى مثل قوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً** ﴾ (٢) .

وهو يتمتع بها فى توسط واعتدال طوعاً لأمر الله تعالى : ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ ؟ (٣) .

---

(١) الملك : ١٥ (٢) البقرة : ١٦٨ (٣) الأعراف : ٣١ - ٣٢

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ (١) .

وهو حين يستهلك ويستمتع بالطيبات يستحضر أنها من رزق الله تعالى ، ونعمته عليه ، وأن عليه الشكر لواهبها سبحانه ، كما قال تعالى عن سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣) .

بل تدل الآيات أنه رزقهم من الطيبات ليكونوا على رجاء الشكر : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) ، و﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٥) .

وهو حين يبيع ويشترى ، ويؤجر ويستأجر ، ويتبادل مع غيره الأموال والمنافع ، يقف عند حدود الله تعالى فى معاملته ، لا يكسب من حرام ، ولا ينمى ما كسبه بطريق حرام ، لا يرابى ولا يحتكر ، ولا يظلم ولا يغش ، ولا يقامر ولا يسرق ، ولا يرشو ولا يرتشى .

يعمل فى دائرة الحلال البيّن ، ويجتنب دائرة الحرام البيِّن ، ويتقى الشبهات ما استطاع ، استبراءً لدينه وعِرضه ، وبُعْداً عن حِمى الحرام خشية أن يقع فيه .

قد وعى أوامر الله ونواهيه فى ذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ (٦) .

---

(١) الإسراء : ٢٩ (٢) سبأ : ١٥ (٣) البقرة : ١٧٢

(٤) الأنفال : ٢٦ (٥) إبراهيم : ٣٧ (٦) البقرة : ٢٧٥

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) .

﴿ وَلا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه » (٤) ، « لا يحتكر إلا خاطىء » (٥) ، « إن الله إذا حرَّم شيئاً حرَّم ثمنه » (٦) .

وهو حين يملك المال لا يحتجزه لنفسه ، ضانّاً به عن غيره ، ولا ينفقه فى معصية أو سفه ، وبعبارة أخرى : لا يمسكه عن حق ، ولا يصرفه فى باطل .

فملْكيته للمال ليست مطلقة ، بحيث يفعل ما يشاء ، ويتصرف كما يشتهى ، على نحو ما قال قوم شعيب لشعيب حين قال لهم : ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٧) فردُّوا عليه ساخرين : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ ؟ (٨) .

أو على نحو ما قال قارون لقومه حين أخلصوا له النصح قائلين : ﴿ لا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ، إِنَّ

---

(١) النساء : ٢٩ (٢) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ (٣) البقرة : ١٨٨

(٤) رواه مسلم عن جابر . (٥) رواه مسلم عن معمر بن عبد الله (٦) متفق عليه .

(٧) هود : ٨٥ (٨) هود : ٨٧

اللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، فماذا كان جوابه ؟ : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ ! (١) .

* *

● **اقتصاد خادم للعقيدة « ربَّانية الوجهة والغاية » :**

٢ - والاقتصاد فى الإسلام ليس هدفاً فى ذاته ، ولكنه ضرورة للإنسان ، ووسيلة لازمة له ليحيا ويعمل لغاياته العليا ، فهو معين له ، وخادم لعقيدته ورسالته .

فالإسلام نظام كامل للحياة : حياة الفرد ، وحياة الأُمَّة ، الحياة بجوانبها الفكرية والروحية والخُلُقية ، وبجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فالناحية الاقتصادية جزء منه ، وجانب من جوانبه ، وهى جزء حى ، وجانب مهم ، ولكنها ليست أساس بنائه ، ولا محور تعاليمه ، ولا هدف رسالته ، ولا عنوان حضارته ، ولا مهمة أُمَّته .

* *

● **العقيدة أساس هذا النظام :**

وسر ذلك : أن هذا النظام للحياة الإنسانية منبثق عن عقيدة شاملة فى الكون والحياة والإنسان ، وفى مصدر هذا الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان . عقيدة تخاطب العقل ، وتطابق الفطرة ، فى تفسيرها لمعميات الوجود ، وإجابتها عن الأسئلة الحائرة للإنسان منذ فكَّر وتأمَّل : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟ ، من أين جئتُ وجاء هذا الكون الفسيح ؟ ومَن أبدعه ومَن نظَّمه ؟ وما صلة الإنسان بهذا الخالق المبدع ؟ وإلى أين المسير بعد رحلة الحياة ؟ ولماذا نحيا ؟ ولماذا نموت ؟

---

(١) القصص : ٧٦ - ٧٨

هذه العقيدة تقوم على العناصر التالية :

(أ) على الإيمان بالرب الأعلى ، الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى « الله » ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (١) ، له الخلق وله الأمر وحده ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله ، لا يُعبد إلا هو ، ولا يُستعان إلا هو ، ولا تُطلب الهداية من غيره ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) .

لا يجوز لمخلوق أن يتخذ غيره تعالى ولياً ، ولا أن يبتغى غيره حكَماً ، ولا يبْغى غيره رباً : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣) ، ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً ﴾ (٤) ، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٥) .

(ب) وبأن الإنسان ليس هو هذا الغلاف الجسدى ، ولا هذا الهيكل من العظم واللَّحم والدم والأعصاب فحسب ، وإنما هو روح علوى يسكن هذا الهيكل السفلى ، وقبس من نور السماء فى غلاف من طين الأرض ، وبهذا السر الكامن فى حناياه كان أهلاً لخلافة الله وتكريمه ، وعمارة أرضه بالحق والعدل : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

(جـ) وبأن الناس جميعاً عباد لله وحده ، أحرار من التبعية لغيره ، متساوون فى المبدأ والمصير ، إخوة فى الإنسانية ، سوَّى بينهم بنوتهم لأب واحد هو آدم ، وعبوديتهم لرب واحد ، هو الله الذى خلقهم من ذكر وأُنثى ، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، لا فضل لجنس على جنس ، ولا لون على لون ، ولا فرد على فرد ، إلا بالتقوى .

---

(١) الفاتحة : ٢ - ٤ (٢) الفاتحة : ٥ - ٦ (٣) الأنعام : ١٤
(٤) الأنعام : ١١٤ (٥) الأنعام : ١٦٤ (٦) البقرة : ٣٠

(د) وبأن الله تعالى لم يترك الناس سدىً ، ولم يدعهم هملاً تائهين ، بل بعث إليهم مَن يدلهم على الغاية ، ويرشدهم إلى الطريق ، فأرسل رسله بالبيِّنات والهدى : ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) ، ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٢) .

(هـ) وبأن رسالات الله تعالى خُتمت بالرسالة العامة الخالدة - رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - التى أكمل الله بها الشرائع ، وتمم بها مكارم الأخلاق ، وأودع فيها من معالم الحق ، وقواعد العدل ، ومعانى الخير ، ودلائل الهدى ، ما لا تصلح الحياة إلا به ، ولا تسعد البَشرية بغيره ، إلى أن تقوم الساعة : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

(و) وبأن مهمة الإنسان فى الحياة ليست أن يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام بل عبادة الله وحده ، وفعل الخير ابتغاء مرضاته ، ومقاومة الفحشاء والمنكر والبغى ، والاستمساك بعروة الحق ، والصبر على ما يلقى من الأذى فى سبيله : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (٤) .

(ز) وبأن الموت ليس نهاية المطاف ، ولا ختام الوجود الإنسانى ، بل هو انتقال إلى مرحلة جديدة ، وحياة أخرى ، تُجزَى فيها كل نفس بما كسبت ، وتخلد فيما عملت : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (٥) ، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ (٦) .

---

(١) النساء : ١٦٥ (٢) الحديد : ٢٥ (٣) الصف : ٩

(٤) العصر : ١ - ٣ (٥) الزلزلة : ٧ - ٨ (٦) المؤمنون : ١١٥ - ١١٦

هذه العقيدة الشاملة هى أساس النظام الإسلامى كله ، وإن شئت قلت : النظم الإسلامية جميعاً ، بما فى ذلك النظام الاقتصادى .

إنَّ النظام فى الإسلام - بل فى كل مذهب - فرع عن العقيدة ، وخادم لها ، ومهمة النظام - أى نظام - أن يحمى العقيدة ، ويعمق جذورها ، وينشر نورها ، ويضع الصور العملية التى تُعبِّر عنها ، وتحقق أهدافها فى واقع الحياة .

لهذا كان النظام الإسلامى للحياة نظاماً فذّاً متميزاً ، فهو يشمل : العبادات التى تسمو بالروح وتربط الإنسان بالله .. والأخلاق التى تضبط الغرائز وتزكى الأنفس .. والآداب التى ترقى بالسلوك ، وتجمِّل الحياة .. والتشريعات التى تبين الحلال من الحرام ، وتقيم العدل ، وتمنع التظالم والبغى، وتنظم علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالأسرة ، والفرد بالأُمَّة ، والأُمَّة بغيرها من الأُمم ، على قواعد من الأُخوة والمساواة والعدالة ، وتبادل الحقوق والواجبات ، كما تقرر العقوبات التى تؤدب المنحرف ، وتردع المتهاون ، وتُحفظ بها حدود الله وحقوق الناس .

فإذا كانت بعض النظم العالَمية تجعل الخبز هدفها ، والبطن محورها ، والاقتصاد مشكلتها ، والدنيا أكبر همها ، ومبلغ علمها ، والمادة دعامة حياتها، بل عماد حضارتها ومدار فلسفتها وتفكيرها - فإن نظام الإسلام يهتم بهذه الأُمور على أنها وسيلة لا غاية ، وفرع لا أصل ، ويوجه أكبر همه وعنايته إلى السمو بالروح ، والرقى بالإنسان من ظلمة المادة ، وجاذبية الطين ، وهبوط الغرائز ، إلى إشراق الروح ، وهداية السماء ، والتطلع إلى الملأ الأعلى .

إنَّ الاقتصاد الإسلامى اقتصاد ربَّانى ؛ لأنه منبثق عن عقيدة ربَّانية ، هى عقيدة التوحيد ، الذى بعث الله بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، فهو مُعبِّر عن هذه العقيدة فى مجاله ، وهو خادم لها كذلك .

إنَّ الاقتصاد الإسلامى يعمل بكل قوة على تحقيق الحياة الطيبة لأهله ،

بحيث تتوافر لهم كل حاجات الحياة ومطالبها المشروعة ، ولكنه لا يرضى أن تكون هذه الحياة هى غاية الغايات ، بل يريدها أن تكون سُلَّماً لحياة أرقى وأزكى وأخلد ، وهى حياة الخلود ، التى وعد الله بها المؤمنين والمؤمنات من عباده .

الاقتصاد الإسلامى اقتصاد ربَّانى ؛ لأن منطلقاته ربَّانية ، ولأن غايته ووجهته كذلك ربَّانية ، همه أن يعين المكلَّفين على أن يعبدوا ربهم ، ﴿ **الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّن خَوْفٍ** ﴾ (١) ، وأن لا يجرهم الفقر إلى الكفر ، ولا يدفعهم الجوع إلى الإثم ، ولا يعلو صوت المعدة الخاوية على صوت الإيمان الحى .

* *

● وازع الإيمان قبل وازع السلطان :

٣ - وأمر آخر تتجلى فيه ربَّانية الاقتصاد الإسلامى ، وهو الوازع الداخلى ، أو « الضمير » الذى ينشئه الإيمان فى قلب المسلم ، ويجعل من نفسه رقيباً على نفسه . . فلا يسمح لها أن تأخذ ما ليس لها بحق ، أو تأكل مال الغير بالباطل ، أو تستغل ضعف الضعيف ، أو غفلة المسترسل ، أو حاجة المضطر ، أو أزمة الغذاء أو الدواء أو الكساء فى المجتمع ، فتحاول أن تنتهز الفرصة لتربح الملايين من وراء جوع الجائعين ، وبؤس البائسين .

إنَّ إيمان المسلم برقابة ربه عليه اليوم ، وحسابه له فى الغد ، يوم تُنشَر الدواوين ، وتُنصَب الموازين ، واستحضار هذا فى وجدانه ، هو الرقيب الأول ، الذى يغنى عن كل رقيب ، ولا يغنى عنه أى رقيب . فهو يرقبه فى تحرِّى الحلال الطيب من المكاسب ، وتجنب الحرام الخبيث منها ، فلا يقبل أن تصل إلى جوفه لقمة من حرام ، فكل جسم نبت من حرام فالنار أولى به .

---

(١) قريش : ٤

ولا يرضى أن يدخل جيبه أو صندوقه درهم من سُحْت ، يعلمه من نفسه سُحْتاً - ولو قضت به ألف محكمة ومحكمة ، فإن المحكمة تحكم بالظاهر ، والله وحده أعلم بالسرائر ، فضمير المؤمن هنا هو قاضيه ومفتيه ، وإن أفتاه الناس وأفتوه ، كما جاء فى الحديث الشريف .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وفى الحديث الصحيح : « إنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له من حق أخيه بشىء ، فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليدعها » (٢) .

والقاضى هنا هو رسول الله ﷺ ، ولكنه هنا يقضى بظاهر الحال ، وفقاً للإجراءات المعتادة ، والبيِّنات المقدَّمة ، فهو ينفذ فى الدنيا ، ولكنه لن يغير الحقائق عند الله يوم تُبلَى السرائر .

بل إن المسلم الذى يخشى الله تعالى ويتقيه : يدع ما يريبه من المكاسب إلى ما لا يريبه ، ويتقى الشبهات خشية الوقوع فى الحرام ، كما فى الحديث المتفق عليه : « فمن اتقَّى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه ، ومَن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » (٣) .

بل المسلم المتقى لربه يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، بُعداً عن أية مظنة للاقتراب من الحرام أو الشبهات ، وفى الحديث الذى رواه

---

(١) البقرة : ١٨٨ (٢) متفق عليه عن أُم سلمة .

(٣) رواه الشيخان عن النعمان بن بشير : البخارى مع الفتح برقم(٥٢) و(٢٠٥١) طبعة السلفية - بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ومسلم برقم (١٥٩٩) ، وهو الحديث السادس من الأربعين النووية ، وقد أفاض ابن رجب فى شرحه فى « جامع العلوم والحكم » ص ١٩٣ - ٢١٤ ، طبعة الرسالة - بتحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس .

الترمذى وغيره : « لا يبلغ عبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس »[1] .

إن فكرة « الحلال والحرام » فكرة مهيمنة على عقل المسلم وضميره ، وهو يوقن بأنه مسؤول أمام الله عن ماله : من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ ولا بد له أن يُعِدّ للسؤال جواباً .

ولا يتسامح الإسلام فى الحرام من المكاسب ، ولو كان الهدف من ورائها محموداً فى نظر الشرع ، كالذى يقيم حفلاً راقصاً ، أو سهرة ماجنة ، ليعين من دخلها جمعية خيرية ، وكالذى يأكل الربا ، ليؤسس به جامعاً للعبادة ، أو مدرسة لتعليم اليتامى ، أو لتحفيظ القرآن الكريم ، أو مستشفى لعلاج المرضى الفقراء ، فالإسلام لا يقر مبدأ : أن « الغاية تبرر الوسيلة » ، بل هو يحرص على نظافة الوسيلة حرصه على شرف الغاية . وفى الحديث الصحيح : « إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً »[2] .

* *

● أهمية التربية الإيمانية فى توجيه الاقتصاد :

٤ - ومن هنا كانت أهمية التربية الإيمانية لتوجيه الاقتصاد الوجهة التى يريدها الإسلام ، وضبطه بأحكامه الشرعية .

فلقد أصبح من الأُمور المسلَّمة فى ميدان الاقتصاد أهمية الدوافع الفردية ،

---

(١) رواه الترمذى (٢٤٥٣) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه (٤١٥) ، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبى : ٤/٣١٩

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة برقم (١٠١٥) ، وهو من أحاديث الأربعين النووية ، وهو الحديث العاشر فى « جامع العلوم والحكم » لابن رجب ص ٢٥٨ وما بعدها ، طبعة الرسالة ، وهذه اللفظة متفق عليها فى حديث أبى هريرة : « مَن تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ..... » الحديث .

التى تجد فى حق التملك وحق الميراث ، وفى جو الحرية والمنافسة الاقتصادية ، أقوى الحوافز ، لزيادة الإنتاج ، وإتقان العمل ، وابتكار أحسن الوسائل ، لإنتاج أفضل الأشياء ، بأقل النفقات .

ولكن الخطر الذى يخشاه الجميع أن تنقلب تلك الدوافع الفردية الفطرية إلى أنانية بشعة ، تريد أن تلتهم كل شىء ولا تشبع ، وأن تصبح المنافسة فى جو الحرية الاقتصادية ضرباً من التكالب الذى لا خُلُق فيه ولا شرف ، أو تمسى لوناً من اللصوصية المنظمة يتفق فيه الأقوياء على ابتلاع الضعفاء .

فهل هناك من سبيل لإبقاء الدافع الفردى وإبقاء المنافسة الاقتصادية ، مع تقليم أظافرها الحادة ، وخلع أنيابها المفترسة ؟

والجواب : إن السبيل الأول للتوفيق بين البواعث الفردية والمصلحة الاجتماعية - قبل كل تشريع وكل تنظيم - هو الإيمان .

الإيمان هو الذى يصنع لصاحبه « عقلية » ينظر بها إلى نفسه ، وإلى الكون وإلى المال والحياة ، وإلى الأشياء والقِيَم ، غير نظرة « الرأسمالى » الذى لا يكاد يفكر إلا فى المادة والمتعة، ولا غاية له إلا جمع أكبر مقدار من النقود.

والإيمان هو الذى يصنع لصاحبه « قلباً » يشعر ويحس ، ويتعامل مع الله والكون والناس والحياة ، ببصيرة وحيوية ، فهو يحب الحق ، ويريد الخير ، ويكره الباطل ، وينفر من الشر ، ويرنو إلى حياة بعد الحياة .

إن عقل المؤمن وقلبه ، غير عقل المادى الملحد أو الشاك ، وقلبه ، ولكل منهما عالَمه ، عالَم الملحد هو دنياه الخاصة وما يستطيع أن يحقق لذاته فيها من شهوات ومنافع مادية عاجلة ، وعالَم المؤمن رحب فسيح اتصل بالأزل والأبد ، واستوعب المادة والروح ، والغيب والشهادة، والحياة وما بعد الحياة.

وهذه العقلية التى يصنعها الإيمان من شأنها أن تخفف من غلواء الطمع ، ومن سعار المنافسة ، ومن داء التكالب والتزاحم على المادة ، وتشدُّه إلى

أصول ثابتة من القيَم الرفيعة ، والمُثُل العليا ، فتنير طريقه ، وتُسدِّد خطواته ، وترفعه من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانية الراشدة . فتراه يرفض الحرام بإصرار، ويقبل الحلال القليل بقناعة .

ثم إن هناك فَرْقاً كبيراً بين إنسان ينظر إلى المال من خلال شخصه هو ، فهو وحده الذى جمعه ، وهو وحده الذى نمَّاه ، وهو وحده الذى يستحق أن يستمتع بثمراته . . . وبين إنسان يرى نفسه « خليفة الله » فى المال ، فالمال فى الحقيقة مال الله ، هو الذى أنشأ مادته ، وهو الذى سخَّره لمنافع الإنسان ، وهو الذى وهب الإنسان المقدرة على اكتسابه ، والأهلية للانتفاع به ، فهو « أمين » على المال ، أو « مُسْتخلَف فيه » كما عبَّر القرآن الكريم .

فرق كبير بين إنسان ينظر إلى المال ويقول فى صلف وغرور : « هذا لى » ، وآخر يقول فى تواضع وإيثار : « هذا لله عندى » !!

فرق بين قارون الذى قال معتزاً بماله : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى** ﴾ (١) ، وبين سليمان الذى قال شاكراً لنعمة ربه : ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ** ﴾ (٢) .

فرق بين الملحد الذى لا يرجو الله ولا الدار الآخرة ، وليس له أمل وراء هذه الحياة العاجلة ، كصاحب الجنَّتين الذى قال لصاحبه وهو يحاوره : ﴿ **أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً** ﴾ (٣) .

وبين المؤمن الذى اتسع أُفق حياته ، فشمل الدنيا والآخرة ، ووسع قلبه الخلق والخالق ، كمؤمن آل فرعون الذي قال لقومه : « ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ**

---

(١) القصص : ٧٨ (٢) النمل : ٤٠ (٣) الكهف : ٣٤ - ٣٦

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

إن المؤمن يملك المال ، ولكن المال لا يملكه . . ويستولى على الدنيا ، ولكنها لا تستولى عليه ، إنه يجمعها فى يده ولكنه لا يُسكنها شغاف قلبه ، إنها عنده وسيلة وطريق ، وليست هدفاً وغاية ، إن هدفه عبادة الله تعالى والجهاد لتحقيق منهجه وإعلاء كلمته فى الأرض ، لتصقله تلك العبادة ، وهذا الجهاد ، وتعده لحياة الخلود التى خُلِق لها وخُلقت له .

أما الأموال والطيبات فهى عون له على أداء رسالته ، وأداة له فى بلوغ غايته .

إنَّ هذا الإيمان هو الذى يجعل المسلم يقف من نفسه موقف المحاسِب لها ، المراقِب لتصرفها : فلا يتملك المال بأى طريق ، ولا ينميه بأى طريق ، ولا ينفقه فى أى طريق ، بل يتملكه كما شرع الله ، وينميه كما أمر الله ، وينفقه فيما أحب الله .

* * *

(١) غافر : ٣٩ - ٤٠

فكرة الاستخلاف فى مال الله

ومن القِيَم المحورية الربَّانية فى الاقتصاد الإسلامى : تلك القيمة الكبيرة البارزة ، التى تقرر أن الإنسان الذى يملك إنما هو مُسْتخلَف فى مال الله تعالى، وهى تؤكد خصيصة « الربَّانية » فى هذا الاقتصاد .

إن المسلم يؤمن بأنه مخلوق لله تعالى ، يعمل فى ساحة هى أرض الله ، بقدرات هى من هبة الله ، وبأدوات هى من نعمة الله ، ووفقاً لسنن هى من صنع الله .

فإذا كسب بعد ذلك مالاً فهو مال الله ، هو خلقه وملكه ، وإنما هو مُسْتخلَف فيه ، وأمين عليه .

ولا بد لنا من الوقوف أمام هذه الفكرة أو النظرية - كما تسمى أحياناً - حتى نبين مفهومها ونعرفها بأدلتها من القرآن والسُّنَّة ، ونكشف عن آثارها فى حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم ، اعتقاداً وتفكيراً وسلوكاً ، ونعنى بها : فكرة استخلاف الإنسان فى مال الله سبحانه .

● أساس فكرة الاستخلاف :

وأساس هذه الفكرة أو النظرية كما بيَّنتها فى « فقه الزكاة » [1] : أن الله - جَلَّ جلاله - هو المالك الحق لكل مَن فى هذا الكون ، وكل ما فى هذا الكون : أرضه وسمائه ، إنسانه وحيوانه ونباته وجماده ، الماء واليابس فى هذا الكوكب ، والأحياء بأنواعها وفصائلها المختلفة ، وغير الأحياء من جوامد

---

(١) الجزء الأول ، ص ١٠١٧ - الطبعة السادسة عشرة ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

وغازات ونحوها ، العقلاء وغير العقلاء ، من البَشر وممن غيرهم ، مما نبصر وما لا نبصر ، يقول تعالى : ﴿ وَلله مَا فى السَّمَوَات وَمَا فى الأَرْض ﴾ (١) ، ﴿ لَهُ مَا فى السَّمَوَات وَمَا فى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ (٢) ، ﴿ أَلا إِنَّ لله مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ ﴾ (٣) .

فكل ما فى هذا العالَم : علويّه وسفليّه ، ملْك خالص لله تعالى ، وليس لأحد شرك فى ذَرَّة منه : ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ الله ، لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (٤) ، وذلك الملْك بمقتضى خلقه لها ، وهيمنته عليها : ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٥) ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (٦) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ﴾ (٧) .

والأموال كلها ملْك لله تعالى ، فهو واهبها والمنعم بها على عباده ، وهو وحده خالقها ومنشئها ، وعمل الإنسان الذى نسميه « إنتاجاً » يتخذ مجاله فى مادة خلقها الله سبحانه وسخَّرها له ، ولهذا يقول الاقتصاديون : إن الإنتاج هو خلق المنفعة وليس خلق المادة ، ومعنى هذا أنه يحوِّل المادة لتُشبع حاجاته وتكون لها منفعة (٨) .

كل ما يقوم به الإنسان فى « الإنتاج » لا يتجاوز التغيير فى أوضاع الأشياء وأماكنها ، كأن يستخلصها من مواطنها الأصلية بالاستخراج أو الصيد مثلاً ، أو ينقلها من مكان تزيد فيه عن الحاجة إلى مكان يحتاج إليها فيه ، أو يحفظها عن طريق التعبئة والخزن لينتفع بها فى المستقبل ، أو يخضعها لبعض المؤثرات

---

(١) النجم : ٣١ (٢) طه : ٦ (٣) يونس : ٦٦
(٤) سبأ : ٢٢ (٥) الزمر : ٦٢ (٦) الفرقان : ٢
(٧) الحج : ٧٣
(٨) انظر الاقتصاد السياسى ، للدكتور رفعت المحجوب : ١/ ١٩١ ، ١٩٢

لتصبح صالحة لسد حاجة ما ، أو يُحوِّلها من شكل إلى آخر بالحلج أو الغزل أو النقش أو الطحن ... إلخ ، أو يؤلِّف بينها تأليفاً خاصاً فيجعل منها شيئاً جديداً ، هو مجرد التغيير فى أوضاع العناصر وأماكنها ، حتى فى حال إحداث ثروة جديدة لم تكن من قبل ، كما فى الزراعة أو تربية الحيوان ، لا يعمل الإنسان أكثر مما يعمله فى المظاهر الإنتاجية الأخرى (١) .

هذا ما يقرره فلاسفة الاقتصاد بوضوح فى بيان وظيفة الإنسان فى الإنتاج : مجرد تحوير وتغيير فى أوضاع وأماكن الأشياء الموجودة فعلاً ، ومَن موجدها ؟ إنه : ﴿ **رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ (٢) ، ﴿ **اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا** ﴾ (٣) .

حتى هذا التغيير والتحوير مَن الذى يَسَّرَ سُبله للإنسان ، ومنحه القدرة على فعله ، وأمدَّه بكل ما يعينه فى هذا السبيل ؟ إنه ربنا الذى خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

إذا زرع الإنسان زرعاً فأنبت حبّاً ، أو غرس غرساً فآتى ثمراً ، فكم يوازى عمل يده فى الحرث والسقى والتعهد ، بجانب عمل يد الله الذى جعل الأرض ذلولاً ، وصرّف الرياح ، وسخَّر السحاب ، وأنزل الماء من السماء مطراً ، أو أجراه فى الأرض نهراً ، ووفَّر الحرارة الملائمة ، والضوء الكافى ،

---

(١) انظر : الاقتصاد السياسى للدكتور على عبد الواحد وافى ، ص ٧٤ - ٧٦ ، الطبعة الخامسة .
(٢) طه : ٥٠
(٣) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤

والهواء المناسب ، وهيأ للحبة فى باطن التراب غذاءها من شتَّى العناصر ، حتى صارت شجرة مورقة مثمرة ؟

ألا ما أقل عمل الإنسان وجهده بجانب رعاية الله !!

ثم ما عمل الإنسان إذا لم يهبه الله العقل الذى به يُفكِّر ويُدبِّر ، والقدرة التى بها يُنفِّذ ، والأدوات التى بها يعمل ؟!

لهذا يُبيِّن القرآن فضل الله على عباده ، ويرد الحق إلى نصابه ، فيقول : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

ويقول فى سورة أخرى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِه * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ (٢) .

ويقول فى سورة ثالثة : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

نعم ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وهم يأكلون من ثمار لم تعملها أيديهم ، وإنما عملتها يد الله ، الله الذى أحيا الأرض الميتة ، وأخرج منها الحَبَّ ، وأنشأ الجنَّات ، وفجَّر العيون .

وليس عمل يد الله فى الزراعة فحسب ، بل فى كل ناحية من الحياة : زراعة ، أو تجارة ، أو صناعة ، أو غيرها - ففى الصناعة مثلاً نجد المادة « الخام »

---

(١) الواقعة : ٦٣ - ٧٠ (٢) عبس : ٢٤ - ٢٨ (٣) يس : ٣٣ - ٣٥

من خلق الله ، لا من إنتاج الإنسان ، ومن هنا امتنَّ الله على الناس بمادة الحديد ، فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (١) .

والتعبير بـ « أنزلنا » يعنى أن الله خلقه بتدبير سماوى علوى لا دخل للإنسان فيه .

ونجد مادة الوقود والقُوَى المحرِّكة من صنع الله وحده ، فالإنسان لم يخلق الفحم ولا البترول ، ولا الكهرباء ، وإنما اكتشفها فقط ، أما الذى بثَّها فى الكون فهو الله .

ونجد الاهتداء إلى الصناعات من إلهام الله وتعليمه للإنسان ما لم يكن يعلم ، كما قال عن نبى الله داود : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٢) .

والنتيجة من هذا : أن المال رزق يسوقه الله للإنسان فضلاً منه ونعمة ، ومهما يذكر الإنسان عمله وجهده فليذكر عمل القدرة الإلهية فى الإيجاد والإمداد : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (٣) . فلا غرابة بعد هذا أن ينفق الإنسان - عبد الله - بعض ما رزقه الله فى سبيل الله ، وإعلاء كلمة الله ، وعلى إخوانه عباد الله ، قياماً للواهب المنعم بحق الشكر على نعمائه ، ومن أجل هذا يقول الله فى كتابه : ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٥) ، ويقرر أن المال مالَ الله ، والإنسان ما هو إلا مُسْتَخلَف فيه ، أو موظف مؤتمن على تنميته وإنفاقه ، والانتفاع والنفع به . يقول تعالى : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (٦) ، ويقول : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ (٧) ،

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) الأنبياء : ٨٠ (٣) النحل : ٥٣
(٤) البقرة : ٢٥٤ (٥) البقرة : ٣ (٦) النور : ٣٣
(٧) آل عمران : ١٨٠

لم يقل : الذين يبخلون بمالهم ، بل قال : ﴿ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِه ﴾ ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة : أن المال رزق من عند الله آتاهم إياه من فضله ، ويقول : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيه ﴾ (١) ، فالإنسان ليس مالك المال فى الحقيقة ، ولكنه خليفة المالك - وهو الله تعالى - ووكيله فيه (٢) .

* *

● **من أقوال علمائنا :**

قال صاحب « الكشاف » فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيه ﴾ : « يعنى أن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، وإنما موَّلكم إياها ، وخوَّلكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنوَّاب ، فأنفقوا منها فى حقوق الله ، وليهن عليكم الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه » (٣) .

وليست ثمرة العلم بأن المال مال الله ، والإنسان فيه بمنزلة النائب أو الوكيل ، مقصورة على تهوين البذل والإنفاق عليه ، حيث ينفق من مال غيره ، وقد أذن له فيه ، بل يفيد العلم بهذه الحقيقة أيضاً أن يتقيَّد الإنسان بمشيئة المالك الحقيقى للمال ، فإن الوكيل ما هو إلا ممثل لإرادة الموكل ، ومنفِّذ لما يطلبه ،

---

(١) الحديد : ٧

(٢) قال ابن القيم : « هل يصح أن يقال : إن أحداً وكيل الله » ؟ وأجاب بالنفى : « فإن الوكيل مَن يتصرف عن موكله بطريق النيابة ، والله عَزَّ وجَلَّ لا نائب له ، ولا يخلفه أحد ، بل هو الذى يخلف عبده ، كما قال النبى ﷺ : « اللَّهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل » ، ثم قال : « على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه ، ورعايته والقيام به » (انتهى من مدارج السالكين : ٢/ ١٢٦ - ١٢٧ ، مطبعة السُنَّة المحمدية) .

(٣) الكشاف : ٣/ ٢٠٠

وليس له حق الانفراد بالتصرف حسبما يهوى ويشتهى ، وإلا بطلت وكالته ولم يعد جديراً بحق الاستخلاف الذى أساء استعماله .

وقد نبَّه علماؤنا رحمهم الله على حق الله فى المال بعبارات بليغة ، نذكر منها ما قاله الإمام الرازى فى تفسيره : « إن الفقراء عيال الله ، والأغنياء خُزَّان الله ، لأن الأموال التى فى أيديهم أموال الله ، فليس بمستبعد أن يقول الملك لخازنه : اصرف طائفة مما فى تلك الخزانة إلى المحتاجين من عيالى » (١) .

وما قاله القاضى ابن العربى (٢) : إن الله بحكمته البالغة ، وأحكامه الماضية العالية ، خصَّ بعض الناس بالأموال دون البعض ، نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يردونه إلى مَن لا مال له ، نيابة عنه سبحانه وتعالى فيما ضمنه بفضله لهم فى قوله : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا** ﴾ (٣) .

فإذا ضنّ الغنى - وهو الخازن لمال الله والأمين عليه - بهذا المال على عيال الله ، واختص نفسه بنعمته دونهم ، فقد استوجب نكال الله وعقوبته .

* *

● شيوع فكرة الاستخلاف عند عوام المسلمين :

وقد شاع بين عوام المسلمين حديث قدسى عن الله تعالى يقول : « المال مالى ، والفقراء عيالى ، والأغنياء وكلائى ، فإذا بخل وكلائى على عيالى ، أذقتهم وبالى ولا أبالى » (٤) .

ومع أن لفظ الحديث غير ثابت من جهة السند ، فإن معناه فى الجملة صحيح، وشهرته لدى جمهور المسلمين تدل على رسوخ نظرية الاستخلاف فى

---

(١) التفسير الكبير : ١٠٣/١٦ (٢) أحكام القرآن ص ٩٤٥ (٣) هود : ٦

(٤) بحثت عنه فلم أجد له أصلاً ولا مَن تكلَّم عليه .

مال الله وتغلغلها فى أفكارهم ، وهو تغلغل أصيل له جذوره العميقة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله .

ومن الطريف أن أكثر المتسولين والشحاذين فى بلاد المسلمين يعرفون هذه النظرية ويستغلونها لاستعطاف القادرين ، واستخراج الصدقات من أيديهم ولا عجب أن تسمع منهم كثيراً هذه الكلمة : « من مال الله » ! ، وهى كلمة حق يريدون بها باطلاً .

وفى الحديث : « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة ، يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضتَ لنا عليهم ، فيقول الله تعالى : وعِزَّتى وجلالى لأدنينكم ولأبعدنهم » (١) .

* *

● آثار فكرة الاستخلاف فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

لقد كان لهذه الفكرة أو هذه الحقيقة « الاستخلاف » آثار جمة ، وثمرات طيبة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند المسلمين :

(أ) فمن ثمرات هذه الحقيقة الكبيرة : « استخلاف الإنسان فى مال الله » فى نفس المسلم : أنها تخفف من غلوائه وادعائه ، وتحول بينه وبين الأشر والاستكبار ، فلا يغره المال ، ولا يطغيه الغِنَى ، لأنه يوقن أن المال مال الله ، وأن نسبة المِلْكية إلى الإنسان إنما هى نسبة مجازية ، لتنظيم الحيازة والتصرف ، لا ليقول ما قال الإنسان الكفور فى غرور وتنفخ : « هذا لى » (٢) ، ولا ليقول ما قال قارون فى ادعاء وأشر : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى** ﴾ (٣) ،

---

(١) الطبرانى فى الصغير والأوسط عن أنس وإسناده ضعيف ، جمع الفوائد : ١٤٢/١

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ (فصلت : ٥٠) .

(٣) القصص : ٧٨

بل ليقول ما قال سليمان عليه السلام : ﴿ هَذَا من فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (١) .

سئل أعرابى مسلم عن إبل يرعاها : لمن هذه الإبل ؟ فقال فى أدب المؤمن : « هى لله عندى » فما أصدق ، وما أبلغ ما قال !

(ب) ومن ثمرات هذه الحقيقة : أن يهون المال على صاحبه - كما قال صاحب الكشاف - ويسهل عليه إنفاقه كلما دعا داعى الحق ، أو ناداه واجب الأُخوّة ، فلا يحبس ماله عن نُصرة الدين ، ولا عن معونة الضعفاء والمساكين ، فهو إنما ينفق من مال الله ، على عيال الله ، وفى سبيل الله : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ؟ (٢) .

ذكر الخطيب فى تاريخه : أن أبا حنيفة كان يبعث بالبضائع إلى بغداد فيشترى بها الأمتعة ، ويحملها إلى الكوفة ، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة فيشترى بها حوائج الأشياخ المحدِّثين وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم ، ثم يعطيهم ويقول : « لا تحمدوا إلا الله ، فإنى ما أعطيتكم من مالى شيئاً ، ولكن من فضل الله علىّ فيكم » (٣) .

(جـ) ومن ثمراتها : أنها تسهل على مَن بيده المال ، قبول الأوامر والتوجيهات والقوانين الشرعية المتعلقة بتنظيم المال ، فيتقبلها بقبول حسن ، لأنها توجيهات رب المال ومالكه الأصلى ، ولا يتمرد عليها ، كما يتمرد الآخرون على التشريعات الوضعية ، ويحتالون على التهرب منها .. ولا عجب أن وجدنا المؤمنين فى عهد الرسول ﷺ يأتون إليه سائلين : ما يصنعون فى أموالهم - أو بعبارة أخرى - فى أموال الله بأيديهم ؟ ماذا ينفقون ؟ وكم ينفقون ؟ ولمن ينفقون ؟ كما يسأل الموظف الجديد - فى أمانة الصندوق أو الخزينة

---

(١) النمل : ٤٠ (٢) الحديد : ١٠

(٣) انظر : مناقب الإمام أبى حنيفة وصاحبيه للذهبى ص ٢٩ ، طبع دار الكتاب العربى بمصر .

- صاحب العمل أو مديره : ماذا يصنع فيما تحت يده من عهدة ، ولمن يصرف ؟ وكم يصرف ؟

فعن أنس بن مالك قال : أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تُخرج الزكاة من مالك ، فإنها طُهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل » (١) .

وفى سورة البقرة ذكر القرآن للمسلمين سؤالاً تكرر مرتين : ﴿ **يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ** ﴾ ؟ ، وقد أشار الجواب إلى أنهم فى المرة الأولى إنما سألوا عن مصرف الإنفاق ، وفى الثانية عن قدر المنفَق ، فكان الجواب فى الآية الأولى : ﴿ **يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ (٢) . وفى الآية الأخرى : ﴿ **يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ (٣) .

(د) ومن ثمراتها كذلك : أنها تعطى الدولة المسلمة سنداً شرعياً ، وأساساً نظرياً ، لفرض ما تحتاج إليه من ضرائب على القادرين ، تسدّ بها حاجات المحتاجين من عباد الله ، أو تحقق بها مصالح عامة لدين الإسلام ودولته ، إذا لم تف الزكاة المفروضة وموارد الدولة الأخرى بتلك الحاجات والمصالح ، ذلك أنها تأخذ من مال الله لتنفقه على عيال الله وفى سبيل الله ، وبذلك تنحل العقدة ، التى حيَّرت علماء المالية زمناً طويلاً : عقدة الأساس القانونى لفرض الضرائب على مُلاك المال : ما هو ؟

(هـ) ومن ثمراتها أيضاً : أنها تعطى الجماعة المؤمنة حق الرقابة على الغنى فيما يحوزه من أموال ، وتجعل لها عليه سلطاناً إذا هو لم يرع حدود الوكالة الممنوحة له ، فأفسد وأتلف . . فإن مالك المال الأصلى قد خوَّلها حق الحجر

---

(١) قال المنذرى : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، وكذا قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ٦٣) وزاد نسبته إلى الطبرانى . انظر : كتابنا : المنتقى من الترغيب والترهيب للمنذرى - حديث (٣٩٠) .

(٢) البقرة : ٢١٥ (٣) البقرة : ٢١٩

عليه ، وغلّ يده عن التصرف فى مال الله عنده . وفى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَلا تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ (١) .

وعرف الفقه الإسلامى فى أبواب المعاملات « باب الحَجْر » ، وقد يكون حَجْراً لحق الغير ، كالحجر على المدين والمفلس لحق غرمائه ، وقد يكون حَجْراً لحق صاحب المال نفسه ، كالحَجْر على السفيه ، وهو المبذِّر المتلاف الذى يسىء التصرف فى ماله ، لأنه أساء فيما استخلفه الله فيه .

(و) ومن ثمراتها أخيراً : تقوية قلوب الفقراء وعزائمهم فى المطالبة بحقهم عند الأغنياء وعند الدولة إذا شحُّوا به ، وأن من حقهم أن يرفعوا رؤوسهم بكل عزة وكرامة ، مطالبين بنصيبهم فى مال الله ، فإنهم لا يشحذون ولا يتسوَّلون ، بل يسألون « حقهم المعلوم » الذى كتب الله لهم فى ماله عند المستخلَفين فيه من خلقه .

إن الغنى فى نظر الفقير حينئذ أشبه ما يكون بأمين « صندوق » الجماعة ، فهو لا يضعف أمامه ولا يذل ولا يهون .

* *

● كلمة أوجست كونت :

لقد قال « أوجست كونت » الذى يسميه الغربيون « أبا الاجتماع » (مع أن ابن خلدون أسبق منه بقرون فى تأسيس علم الاجتماع) كلمة حُفظت عنه واشتهرت ، مضمونها : أن الغِنَى « وظيفة اجتماعية » ، وأن الغَنِىَّ موظف فى « النظام الاجتماعى » على معنى أن شأن الغنى فى ماله شأن الموظف الذى يُسند إليه منصب ما ، فإن قام بحق مسئوليته ، وأدَّى واجباته فيه ، استحق أن يبقى ويرقى ، وإلا وجبت عقوبته جزاء على تقصيره وتفريطه .

---

(١) النساء : ٥

وهذا كلام حسن ، وقد تأخَّر عن ظهور الإسلام قروناً عديدة ، ومع هذا لم يرتفع إلى ما جاء به القرآن من دقة وروعة فى بيان وظيفة الغنى فى ثروته ، تلك الوظيفة التى رسم كتاب الله معالمها بهذه العبارة البليغة الوجيزة : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (١) .

فالغَنِىُّ هنا خليفة ونائب عن مالك المال ، مسؤول أن يتصرف فيه تثميراً وإنفاقاً ، وفقاً لأمر صاحب المال وتوجيهاته ، فلا يجوز له أن يهمله ويضيعه ، ولا أن يبعثره ويبذره ، ولا أن يبخل به ويمسكه .

فإذا قام الغَنِىُّ بأعباء وظيفته فى ماله استحق الرضا والمزيد ، كما يستحق الموظف الكفء الراتب والترقية ، وإذا لم يقم بأعباء هذه الوظيفة ، كما أمره من وضعه فيها ، فقد استحق غضبه وعقوبته ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (٢) .

* *

● عقوبة الغنىّ الذى لا يقوم بحق الاستخلاف :

وعقوبة صاحب المال ومالكه - وهو الله تعالى - تتمثل فى عدة صور :

١ - عقوبة كونية قَدَرية يتولاها القَدَر الأعلى ، الذى لا رادّ لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ، كأن يسلبه الله نعمة الغنى ، فيدمِّر عليه ماله ، أو ينقله إلى مَن يستحقه ، وفى هذا المعنى يروى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد ، يقرّهم فيها ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم فحوّلها إلى غيرهم » (٣) .

وعن زيد بن ثابت مرفوعاً : « لا يزال الله فى حاجة العبد ما دام فى حاجة

---

(١) الحديد : ٧ (٢) إبراهيم : ٧

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وابن أبى الدنيا ، وقال المنذرى فى الترغيب : لو قيل بتحسين سنده لكان ممكناً . وذكر الهيثمى أن فيه راويا ضعيفا (٨/ ١٩٢) .

أخيه » [1] . ومفهومه أن من لم يكن فى حاجة أخيه لم يكن الله تعالى فى حاجته . وفى الصحيح :« والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ».

وعن ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ، ثم جعل من حوائج الناس إليه ، فتبرَّم (ضاق وتضجر) فقد عرَّض تلك النعمة للزوال » [2] .

وهذه الأحاديث قبس من قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [3] .

والقرآن الكريم يذكر لنا نماذج من هذا النوع من الأغنياء الذين لم يحسنوا القيام بوظيفة الاستخلاف فى مال الله ، فنزع الله عنهم سربال النعمة ، وصبَّ عليهم جام نقمته .

نقرأ فى ذلك قصة قارون الذى غرَّه ماله ، وأطغاه غناه ، فبغى على قومه ، ونسب كل شىء لنفسه ، ناسياً فضل ربه ، الذى خلق ورزق ، وأنعم ويسَّر ، وقد نصحه قومه مخلصين فلم ينتصح ولم يستجب : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ، وَلا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ

---

(١) قال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله ثقات (٨/ ١٩٣) .

(٢) قال فى الترغيب : رواه الطبرانى بإسناد جيد ، المنتقى (١٥٧١) وكذا الهيثمى (٨/ ١٩٢) .

(٣) الأنفال : ٥٣

عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (١) .

وتقرا قصة صاحب الجنّتين فى سورة الكهف ، الذى ضربه الله مثلاً للغنى المستكبر الغارق فى شهواته يومه ، الغافل عن غده وآخرته : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ اتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً ، وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ ، إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴾ (٢) .

٢ - وهناك عقوبة يتولاها أُولو الأمر فى المسلمين ، وتشرف عليها الجماعة الإسلامية كلها متضامنة ، إذ هى مخاطبةٌ بقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ (٣) .

---

(١) القصص : ٧٦ - ٨١ (٢) الكهف : ٣٢ - ٤٣ (٣) النساء : ٥

هذا إلى عقوبات جزئية أخرى ، بدنية وغير بدنية ، مقدَّرة وغير مقدَّرة كجلد مَن ينفق ماله فى شرب المُسْكرات أو المخدرات ، وتأديب الرجل الذى ينفق ماله فى لبس الحرير أو الذهب ، ومثله مَن يقتنى الأوانى الفضية والذهبية ، والتماثيل المحرَّمة ونحوها ، مما يدخل فى عقوبة « التعزير » التى تترك للإمام أو القاضى ، ويمكن فى عصرنا أن تنظمها قوانين العقوبات .

٣ - وفوق ذلك ، هناك عقوبة الآخرة ، وهي أشد وأخزى ، فإن الله تعالى سائل كل ذى مال يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (١) ، ومعاقب كل مَن انحرف عن شرعه وهَدْيه بالعذاب الشديد : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) التكاثر : ٨ (٢) التوبة : ٣٤ - ٣٥

اقتصاد أخلاقى

● الاقتصاد والأخلاق :

مما يميز نظام الإسلام عن الأنظمة المادية الأخرى ، أنه لا يفصل أبداً بين الاقتصاد والأخلاق ، كما أنه لم يفصل بين العلم والأخلاق ، ولا بين السياسة والأخلاق ، ولا بين الحرب والأخلاق ، فالأخلاق لُحْمة الحياة الإسلامية وسَدَاها ، ذلك لأن الإسلام رسالة أخلاقية ، حتى قال النبى ﷺ : « إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » ، كما أنه لم يفصل بين الدين والدولة ، أو بين المادة والروح ، إنه يؤمن بوحدة الحياة ، ووحدة الإنسان ، ولهذا لا يقبل بحال ، ما قبلته أوروبا من الفصام النكد ، والانفصال المشئوم بين الدين والدنيا ، وما نادت به الرأسمالية وغيرها من الانفصال بين الاقتصاد والأخلاق .

إنه لا يجيز أبداً تقديم الأغراض الاقتصادية على رعاية المُثُل والفضائل التى يدعو إليها الدين ، على حين نجد الأنظمة الأخرى تؤثر الكسب الاقتصادى ، ولو على حساب الأخلاق ومقتضيات الإيمان .

وهذا الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق ، يتجلى فى كل الحالات الاقتصادية : فى الإنتاج والتوزيع والتداول والاستهلاك .

والمسلم - فرداً أو مجتمعاً - فى هذه المجالات ليس سائباً طليق العنان ، يفعل ما يحلو له أو ما يعود عليه بالربح فحسب . . كلا ، إن المسلم مُقَيَّد بالإيمان والأخلاق فى كل نشاط اقتصادى يقوم به : فى كسبه إذا اكتسب المال ، وفى تنميته إذا نمّاه ، وفى إنفاقه إذا أنفقه .

والمجتمع المسلم ليس حراً طليق العنان فى إنتاجه لأنواع الثروة أو توزيعها ،

أو تداولها أو استهلاكها ، إنه مُقيَّد بقيود العقيدة والمُثُل الأخلاقية العليا ، بجوار تقيده بقانون الإسلام وأحكامه التشريعية .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

(أ) ظل المشركون من العرب يحجون إلى البيت الحرام بمكة إلى السنة التاسعة من الهجرة ، وكان لهم فى حجهم تقاليد غريبة ، كطوافهم بالبيت عرايا ، لئلا يمس أجسادهم شىء من الملابس التى دنسوها بالمعاصى - هكذا زعموا - ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - أراد أن يطهر بيت الله من أرجاس الوثنية وتقاليدها ، فبعث علياً إلى أبى بكر الصِّدِّيق أمير الحج فى السنة التاسعة ، كى يعلن فى الناس يوم الحج الأكبر : « ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » (١) .

ولا شك أن فى منع حج الألوف وعشرات الألوف إلى الكعبة خسارة اقتصادية كبيرة على المسلمين ، ولكن عليهم أن يتحملوا ذلك فى سبيل إيمانهم ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً** (٢) **فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (٣) .

ومن هذا المثل يتبين لنا أنه لا يحل للمسلمين فى سبيل تنشيط السياحة وكسب العملات الصعبة ، أن يبيحوا الخمور ، ويحلوا الحرام ، ويقيموا دور الرقص والفجور ، وإن خافوا عَيْلة ، فسوف يُغنيهم الله من فضله إن شاء .

(ب) ومثل آخر : لقد كان بعض أهل الجاهلية يفرض على إمائه أتاوة ، يأخذها منهن ، ولو كان ذلك من طريق البغاء والزنى العلنى ، فلما جاء الإسلام امتنع هؤلاء الفتيات بمقتضى إيمانهن عن ارتكاب الفاحشة فى سبيل الكسب ، وأراد أولئك أن يجبروهن على الخنا ، فنزل القرآن ينهى عن ذلك

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢/ ٣٦٤ ، طبعة الحلبى .

(٢) أى فقراً .

(٣) التوبة : ٢٨

ويقول : ﴿ وَلا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

(جـ) ولا شك أن استمرار الناس يبيعون ويشترون فى كل وقت فيه كسب خاص لهم ، وإنعاش للحركة الاقتصادية على العموم ، ولكن القرآن يأمر المؤمنين فى يوم الجمعة ، إذا سمعوا النداء أن يوقفوا دولاب العمل ، ويعطلوا كل بيع وشراء ليسعوا إلى ذكر الله ، وأداء فرضه الأسبوعى ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . ومثل البيع : الإجارة وغيرها من العقود .

كما ندَّد القرآن فى الوقت نفسه بالذين يُشغَلون عن فرض الصلاة بمقدم تجارة وما إليها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ، قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣) .

(د) وفى إباحة الخمر والمسكرات منافع اقتصادية لبعض الناس ، إذ يترتب عليها ازدياد المزروع من الكروم ، وإنشاء مصانع لعصرها ، واتساع نطاق التجارة فيها فى الداخل والخارج ، ولكن القرآن أهدر اعتبار هذه المنافع المادية ، إزاء الأضرار المعنوية الجسيمة ، التى تزرعها فى حياة الفرد ، وحياة الأُسرة ، وحياة الأُمة ، فهى خطر على الدين ، وعلى العقل ، وعلى الخُلُق والسلوك ، بل على الصحة والإنتاج أيضاً . ولهذا لم يبال الإسلام بالمنفعة الاقتصادية العاجلة ، وضحَّى بها قرير العين ، ليتفادى الأخطار الهائلة الناجمة عن إباحتها .

(هـ) ومثل الخمر الميسر (القمار) ففيه بعض المنافع العاجلة أيضاً كالتسلية وشغل الفراغ ، والشعور بنشوة المجازفة ، وتوقع الكسب من غير تعب ، ولكن القرآن لم يعبأ بهذه المنافع الشخصية ، مقابل أضراره على نفسية المقامر

---

(١) النور : ٣٣ (٢) الجمعة : ٩ (٣) الجمعة : ١١

وخُلُقه وسلوكه ، وتعوده الكسب من غير جهد ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وعيشه على أوهام الحظ والمصادفة العمياء ، وهوان كل قيمة وكل عزيز عليه ، بعد إدمان هذا الأمر ، حتى إنه ليبيع قوت أولاده فيه ، ويجيع أسرته ، بل يخون دينه ووطنه من أجله ، فضلاً عما يجلبه القمار من عداوة وبغضاء بين اللاعبين ، وصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة عماد الدين .

وفى هذين الأمرين يقول القرآن الكريم : ﴿ **يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ (١) .

وتوضيحاً لهذا الإثم الكبير فيهما جاء قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ، فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ (٢) .

ولم يكتف الإسلام بتحريم تناول الخمر ، بل حرَّم كل ما يعين على تناولها، فعاصرها وحاملها وبائعها وشاريها وآكل ثمنها ، وكل مَن أسهم فيها بجهد ملعونون على لسان محمد ﷺ (٣) .

(و) وفى تربية الخنازير وبيعها لغير المسلمين فائدة اقتصادية ، ولكن الله تعالى حرَّم لحمه ، وجعله رجساً ، ولهذا لا يباح للمسلمين أن يتاجروا فيه ، فإنه إذا حرَّم شيئاً حرَّم أكل ثمنه .

وفى بيع الأصنام ، وصناعة التماثيل المحرَّمة ، منفعة اقتصادية لصانعيها والمتجرين فيها ، ولكن الإسلام لم يبال بمنفعة هؤلاء الأفراد ومَن وراءهم ، من أجل الحفاظ على العقيدة والمبادىء التى يقوم عليها كيان الأُمة المعنوى .

---

(١) البقرة : ٢١٩ (٢) المائدة : ٩٠ - ٩١

(٣) جديث : « لعن الله الخمر ، وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » رواه أبو داود (٣٦٧٤) ، وابن ماجه (٣٣٨٠) .

روى الشيخان فى صحيحيهما عن سعيد بن أبى الحسن قال : « كنت عند ابن عباس إذ جاءه رجل فقال : يابن عباس ؛ أنا رجل إنما معيشتى من صنعة يدى ، وإنى أصنع هذه التصاوير ، فقال ابن عباس : لا أحدثك إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ : سمعته يقول : « مَن صوّر صورة فإن الله يعذّبه حتى ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ فيها أبداً » فربا الرجل ربوة شدة (أى انتفخ من الغيظ والضيق) ، فقال ابن عباس : ويحك ! إن أبيتَ إلا أن تصنع ، فعليك بهذا الشجر ، وكل شىء ليس فيه روح » (١) .

● تنويه بعض الأجانب بأخلاقية الاقتصاد الاسلامى :

وقد لمح بعض الدارسين الأجانب هذه الميزة فى الاقتصاد الإسلامى ، وكيف مزج بين الاقتصاد والأخلاق ، على حين فرَّق بينهما الاقتصاد الرأسمالى والاقتصاد الشيوعى .

يقول الكاتب الفرنسى « چاك أوستروى » فى كتابه عن « الإسلام والتنمية الاقتصادية » (٢) : « الإسلام هو نظام الحياة التطبيقية والأخلاق المثالية الرفيعة معاً ، وهاتان الوجهتان مترابطتان لا تنفصلان أبداً ، ومن هنا يمكن القول : إن المسلمين لا يقبلون اقتصاداً « علمانياً » ، والاقتصاد الذى يستمد قوته من وحى القرآن يصبح - بالضرورة - اقتصاداً أخلاقياً .

وهذه الأخلاق تقدر أن تعطى معنىً جديداً لمفهوم « القيمة » ، وتملأ الفراغ الفكرى الذى يوشك أن يظهر من نتيجة « آلية التصنيع » .

« لقد استنكر « بركس » النتائج المؤذية لنمو حضارة « الجنس » فى الغرب ، ويقلق الاقتصاد اليوم من سيطرة قِيَم الرغبات على القِيَم الحقيقية .

« والآن بدأ الغرب يعى النتائج المؤذية من جرَّاء مفاوضات عالَمية لعالَم غير مستقر . . فلقد وجد الرجل نفسه مفصولاً عن عمله ، فالآلة أصبحت السيد ، وجاء التطرف فى وسائل الراحة كالسيارات وغيرها . . والاهتمام بالتوافه ،

---

(١) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان (١٣٦٩) . (٢) ترجمة الدكتور نبيل الطويل .

ولم يهتم الغرب أبداً بتخفيف عداء « الآلة » للإنسان ، وهى تشكل أفقاً لقسم هام من الإنسانية .

« ولم يغب عن الإسلام الواعى هذا الدرس فى متناقضات الغرب ، ولكى يقف فى مواجهة الغرب ، محققاً فى الوقت نفسه وجهته الاقتصادية ، عمد الإسلام لإدخال قيمه الأخلاقية فى الاقتصاد . .

وهكذا يخضع العناصر المادية فى الاقتصاد لمتطلبات العدل » .

« وهذا اللقاء بين الأخلاق والاقتصاد ، الذى يلح عليه « ج . برث » لم يوجد صدفة فى الإسلام الذى لا يعرف الانقسام بين الماديات والروحيات .

« وإذا كان اقتران البروتستانتية مع الوثبة الصناعية مزوّراً ، وإذا كانت الصلة بينهما موضع نقاش ، فهذا غير كائن فى الإسلام ، لأن عالَمية تشريعه الإلَهى تمنع كل تنمية اقتصادية لا تقوم عليها .

« وعلى النقل التقليدى السريع لتجربة الغرب : « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » يجب ألا يخفى استحالة هذا التمييز فى الإسلام . وفصل الدين عن الدولة ، الذى أدخل الفاعلية المادية فى الغرب ، لا معنى له فى الإسلام ، حيث لا تولد الفعالية فى المجال الفكرى وخارجه ، بل باستلهام من قوة الإسلام ومن الوحى المنزَّل »[1] أ هـ .

وإذا استقرأنا الواقع التطبيقى ، وجدنا أثر هذا الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق ، واضحاً وعميقاً فى تاريخ المسلمين ، وخاصة يوم كان الإسلام هو المؤثر الأول فى حياتهم ، والموجِّه الأول لنشاطهم وسلوكهم .

وسيتضح هذا جلياً عندما نتحدث بتفصيل عن أثر القيَم والأخلاق فى كل جانب من جوانب الاقتصاد الأساسية ، وهى : الإنتاج ، والاستهلاك ، والتوزيع ، والتداول .

وسنفرد لكل منها باباً خاصاً .

* * *

---

(١) عن كتاب « الإسلام والتنمية الاقتصادية » للكاتب الفرنسى « جاك أوستروى » ترجمة د . نبيل الطويل .

اقتصاد إنسانى

الاقتصاد الإسلامى - كما ذكرنا - اقتصاد ربَّانى أخلاقى ، ولكنه - إلى جوار ذلك - اقتصاد إنسانى أيضاً .

ربما تصوَّر بعض الناس أن الإنسانية تناقض الربَّانية ، وأنهما معنيان لا يجتمعان ، شأن الأمور المتضادة ، كالأبيض والأسود ، والليل والنهار .

وقد فندنا هذا التصور أو هذا التوهم في حديثنا عن خصيصة « الإنسانية » من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » [1] ، وبيَّنا هناك : أن لا تنافى بينهما . فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربَّانية التى كرَّمت الإنسان ، واعتبرته خليفة الله فى الأرض .

كما أن التوجه الربَّانى هو جزء أصيل فى فطرة الإنسان ، وكل مولود يولد على هذه الفطرة .

فإذا كانت أُصول الاقتصاد الإسلامى مستندة إلى نصوص القرآن والسُّنَّة - وهى نصوص ربَّانية - فإن الإنسان هو المخاطَب بهذه النصوص ، وهو الذى يفهمها ويفسِّرها ويستنبط منها ، ويقيس عليها ، وهو كذلك الذى يحولها إلى واقع مَعيش ، فينقلها من دائرة النظر إلى دائرة التطبيق .

والإنسان فى هذا الاقتصاد هو الغاية ، وهو الوسيلة أيضاً .

فغاية الاقتصاد الإسلامى وهدفه : تحقيق « الحياة الطيبة » - بكل مقوماتها وعناصرها - للإنسان : الإنسان فى كل مراحل حياته من الطفولة إلى الشيخوخة ، وفى كل ظروف حياته من صحة وسقم ، ومن ضعف وقوة ، ومن عُسر ويُسر ، الإنسان فرداً والإنسان مجتمعاً .

وتمكين الإنسان - بإشباع حاجاته المشروعة - أن يحيا حياة ربَّانية إنسانية معاً ،

---

(١) انظر : فصل (الانسانيه) ص ٥٠ - ٩٤ ، الطبعة الرابعة - مكتبة وهبة .

فيقوم بواجبه نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو أُسرته ، ونحو أُمتَّه ، ونحو البَشرية جمعاء .

والإنسان كذلك هو صانع هذا الاقتصاد بإذن الله تعالى ، فقد استخلفه الله فى الأرض : ﴿ **إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ (١) ، واستعمره فيها (أى طلب إليه عمارتها) كما قال تعالى على لسان صالح لقومه : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ (٢) ، ومنحه من القدرات والأدوات ما يمكنه من أداء مهمته ، فعليه أن يعمل ويكدح ، ويبتكر ويبدع ، ولا يرتقب عوناً إلا من الله الذى لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً .

لن يُنزل الله ملائكة يزرعون له أو يصنعون ، فإن الملائكة لا تُحسن الزراعة ولا الصناعة ولا العمارة للأرض ، لأنهم لم يُؤهّلوا لذلك ، ولهذا نجح آدم فى معرفة الأسماء ، ولم ينجحوا ؛ إذ علَّمه الله ، ولم يُعلِّمهم : ﴿ **قَالُواْ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾ (٣) .

الإنسان إذن هو غاية الاقتصاد فى الإسلام ، وهو وسيلته وصانعه بما علَّمه الله وآتاه من مواهب وطاقات .

وتتمثل إنسانية الاقتصاد الإسلامى فى مجموعة من القِيَم التى هدى إليها الإسلام فى قرآنه وسنَّته ، وحفل بها تراثه ، وتميَّزت بها حضارته ، مثل قِيَم : الحرية والكرامة الإنسانية ، والعدل وقيام الناس بالقسط ، والإخاء والمحبة بين الناس ، والتعاون بينهم ، ومقاومة العداوة والحسد والبغضاء ، فإنها الحالقة ، لا تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين .

ومثلها : الرحمة لكل الناس ، وخصوصاً للضعفاء من اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والأرامل والعجزة والزَّمْنَى ، وكل مَن لا يقدر على كسب معاشه بنفسه ولا بماله .

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) هود : ٦١ (٣) البقرة : ٣٢

ومن ثمرات هذه القِيَم : أن أقر الإسلام بالمِلْكية الفردية إذا جاءت من طرقها المشروعة ، بما يترتب عليها من حقوق فى المال ، وحمى هذه المِلْكية بقوانينه وبأخلاقياته ، وشرع للفرد أن يدافع عن مِلْكيته وماله مَن يصولون عليه ، ويعتدون على حرماته ، كما سيأتى تفصيل ذلك - إن شاء الله - فى باب « القِيَم فى مجال التوزيع » .

* *

● توفير الحياة الطيبة للإنسان :

ومن أبرز ما تتجلى فيه المعانى الإنسانية فى الاقتصاد الإسلامى : عمله على توفير الحياة الطيبة للإنسان .

فالإسلام فى نهجه الاقتصادى يحث الإنسان على السعى والنشاط ويعتبره عبادة وجهاداً ، ولكنه يهدف من وراء سعيه ونشاطه إلى هدف إنسانى هو تحقيق حياة طيبة للإنسان ، يتذوق فيها طعم السعادة التى ينشدها كل بَشر لنفسه ، ولمن يحب .

ولا عجب أن ينشد الإنسان المسلم الحياة الطيبة الهنيئة الرغيدة ، فقد جعلها الله سبحانه وتعالى مثوبة لأهل الإيمان والاستقامة من عباده : ﴿ **وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً** ﴾ (١) ، ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ (٢) ، ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً** ﴾ (٣) .

والحياة الطيبة تتكون - فى نظر الإسلام - من عنصرين لا غِنَى لأحدهما عن الآخر :

١ - عنصر مادى . ٢ - وعنصر معنوى .

* *

---

(١) الجن : ١٦ (٢) الأعراف : ٩٦ (٣) طه : ١٢٣ - ١٢٤

● العنصر المادى فى الحياة الطيبة :

فأما العنصر المادى . . فنعنى به تمتع الإنسان بما أَوْدع الله فى الأرض من طيبات وزينة ، فقد أكّد الإسلام إباحة ذلك ومشروعيته ، خلافاً لما ذهب إليه المتشددون والمتطرفون من رجال بعض الأديان ، كالمانوية الفارسية ، والبرهمية الهندية ، والرهبانية المسيحية ، ومَن تأثر بهذه النِحَل المنحرفة من متصوِّفة المسلمين .

وما كان الله سبحانه وتعالى ليُخرج هذه الطيبات والزينة ، ثم يُحرِّمها على عباده ، وإنما حرّمها شياطين الإنس والجن ، الذين قالوا : هذا حرام وهذا حلال ، ليفتروا على الله الكذب ، ولهذا نادى الله تعالى الناس جميعاً فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (١) .

أباح الإسلام للناس أن يستمتعوا بما فى الأرض من خيرات ، وأن ينعموا بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، غير مطالَبين إلا بالتزام حدود ما أحلَّ الله ، واجتناب ما حرَّمه .

وهو سبحانه ما أحلَّ لهم إلا كل طيب ، وما حرَّم عليهم إلا كل خبيث . قال تعالى : ﴿ **يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** ﴾ (٢) ، وقال عَزَّ وجَلَّ فى بيان صفة رسوله وخصائص رسالته التى يعرفها أهل التوراة والإنجيل : ﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ (٣) .

وفى عصر النبوَّة سرت بعض أفكار الرهبانية إلى بعض الصحابة ، فحرَّم بعضهم على نفسه أكل اللَّحم ، وبعضهم النوم على فراش ، وبعضهم التزوج

---

(١) البقرة : ١٦٨ (٢) المائدة : ٤ (٣) الأعراف : ١٥٧

مَن النساء ، وأراد بعضهم أن يخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويتبتلوا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً ، وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وقد ذكر القرآن الكريم والسنة النبوية جملة من طيبات الحياة المادية التى امتنّ الله بها على عباده منها :

* طيبات المأكل والمشرب :

(أ) طيبات الطعام والشراب ، مما لذَّ وطاب من لحم وفاكهة ولبن وعسل ، وماء عذب فرات سائغ شرابه . . فلا حَرَج على المؤمن فى الاستمتاع بها ، وانتقاء أطيبها الذى تشتهيه نفسه ، كما ذكر الله تعالى عن الفتية المؤمنين من أصحاب الكهف أنهم قالوا : ﴿ فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ (٢) ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعجبه لحم الذراع ، ويحب الحلوى ، ويُستعذب له الماء .

ولم يطلب القرآن فى مقابل التمتع بهذه الطيبات إلا شكر الله صاحب النعمة وتقواه سبحانه : ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً ، وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (٤) .

*

---

(١) المائدة : ٨٧ - ٨٨ وانظر : تفسير ابن كثير للآيتين .
(٢) الكهف : ١٩
(٣) المائدة : ٨٨
(٤) سبأ : ١٥

* طيبات الملبس والتجمل :

(ب) طيبات اللباس والتجمل ، قال تعالى : ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ (١) ، يمتنّ تعالى على عباده بما جعل لهم من اللِّباس والريش ، فاللِّباس مهمته ستر العورات - وهى السوءات - والرياش والريش ما يُتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات ، وهذا يدلنا على أن الله تعالى يريد لعباده شيئاً فوق ستر العَورة ، وهو التجمل والتزيّن ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله جميل يحب الجمال » (٢) ، ولهذا جاء فى الآية الأخرى : ﴿ **خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ (٣) ، وهذا ما جعل رجلاً كالحسن يتهيأ للصلاة فى أبهى حُلله وأجمل ثيابه ، فلما سُئل فى ذلك قال : أتزيّن لربى ، ثم قرأ الآية : ﴿ **خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ . وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول إذا اكتسى ثوباً : « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى عورتى » (٤)

*

* طيبات المسكن :

(جـ) طيبات المسكن والمأوى التى امتنّ الله بها فى قوله : ﴿ **وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً** ﴾ (٥) ، وقد ذكر القرآن فى معرض الامتنان والإنعام بيوت ثمود التى نحتوها من الجبال ، والتى ذكّرهم بها نبيهم صالح قائلاً : ﴿ **وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن**

---

(١) الأعراف : ٢٦ (٢) رواه مسلم عن ابن مسعود . (٣) الأعراف : ٣١

(٤) رواه أحمد ، انظر تفسير ابن كثير : ٢/٢٠٧ طبع الحلبى . (٥) النحل : ٨٠

سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ، فَاذْكُرُواْ آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

وَكَان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يحب الدار الفسيحة ويعدّها من أسباب السعادة ، وكان يدعو فى وضوئه كثيراً فيقول : « اللَّهم اغفر لى ذنبى ووسِّع لى فى دارى وبارك لى فى رزقي » ، فلما سأله أنس : ما أكثر ما تدعو بهذه الدعوات ؟ قال : « وهل تركن من شيء » ؟ (٢) ، فإنها جمعت بين المغفرة وسعة الدار والبركة فى الرزق ، فجمعت خيرى الدنيا والآخرة .

*

* طيبات المركب :

(د) طيبات المركب - حيوانياً كان أو آلياً - قال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، وقبلها قال فى الأنعام : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) ، وفى سورة أخرى يقول : ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٥) ، وفى أخرى يقول : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (٦) ، وقد جعل النبى - صلى الله عليه وسلم - من عناصر السعادة : « المركب الصالح » أو « المركب الهنيء » وقد كان الفقهاء قديما يعتبرون (الفَرَس) من الحوائج الأصلية للمسلم. وليس أهنأ من السيارة الآن ، تُقرِّب البعيد ، وتطوى

---

(١) الأعراف : ٧٤

(٢) رواه أحمد وغيره عن أبى موسى الأشعرى ، والترمذى عن أبى هريرة ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (١٢٦٥) .

(٣) النحل : ٨ (٤) النحل : ٧

(٥) غافر : ٧٩ - ٨٠ (٦) الزخرف : ١٢ - ١٤

المسافات ، فإن لم تكن سيارة فدراجة بخارية أو نحوها ، فإن لم يتيسر المركب الهنىء الخاص ، فالمفترض أن تتوافر للناس مواصلات عامة جيدة ومُيسَّرة .

*

* طيبات الحياة الزوجية :

(هـ) طيبات الحياة الزوجية والعائلية : قال تعالى : ﴿ **وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ انفُسكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَات** ﴾ (١) ، ﴿ **وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ (٢) .

ولم يجد القرآن غضاضة فى الإشارة إلى المتاع الحسِّى بين الزوجين ، فإنه تلبية لنداء الفطرة : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** ﴾ (٣) ، حتى إنه ليذكر هذا الأمر فى أثناء آيات الصيام والدعاء والتعبد فى شهر رمضان : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ (٤) .

وفى الحديث : « الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » (٥) .

*

* طيبات اللَّهو :

(و) طيبات اللَّهو المباح : من سماع الغناء البرىء والألحان العذبة ، والقيام بألعاب الفروسية والرياضة ، وألعاب التسلية أو مشاهدتها ، والمزح بغير

---

(١) النحل : ٧٢ (٢) الروم : ٢١

(٣) البقرة : ٢٢٣ (٤) البقرة : ١٨٧

(٥) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو ، ومسلم عن ابن عمر ، صحيح الجامع الصغير (٣٤١٣) .

الكذب ، وغير ذلك من كل ما يُدخل البهجة على الحياة ، والسرور على النفس ، فإن الجد المستمر ، والحياة الصارمة - على الدوام - لا تُطاق . وقد قال النبى ﷺ لبعض أصحابه : « ساعة وساعة » (١) ، وقال علىّ بن أبى طالب : روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أُكْرِهَ عمى . وقال أبو الدردراء : إنى لأستجم نفسى بالشىء من الباطل (يعنى اللَّهو) ليكون أقوى لها على الحق .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وكان أصحابه يمزحون ، وكان يسابق عائشة فسَبقته مرة وسبقها مرة ، فقال : « هذه بتلك » ، وقد سبَّق بين الخيل وأعطى السابق ، وسمح بغناء جاريتين فى بيته . . وحمل عائشة لتنظر إلى الحبشة وهو يلعبون بحرابهم فى المسجد (٢) .

وبهذا نرى أن اللَّهو البرىء المهذَّب حاجة من حاجات الفرد والجماعة ، يجب أن يُيسَّر لهما . . أما الإسراف فيه أو الانحراف به ، ليكون معول هدم للقِيَم والأخلاق ، وأداة تضليل وتمزيق للضمائر والأفكار . . فهذا هو الحرام المحظور .

*

* طيبات الجمال والزينة :

(ز) طيبات الجمال والزينة : فقد قال تعالى فى معرض الإنكار على الذين حرَّموا الزينة والطيبات من الرزق : ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ**

---

(١) قاله لحنظلة حين رأى نفسه - وهو فى بيته بين زوجه وولده يداعبهم - أقل روحانية وصفاء منه حين يكون مع الرسول ﷺ ، فذهب إلى الرسول وهو يقول : نافق حنظلة ، فقال له : « يا حنظلة ؛ لو أنكم تدومون على الحال التى تكونون عليها عندى ، لصافحتكم الملائكة فى الطرقات ، ولكن يا حنظلة : ساعة وساعة » (رواه مسلم) .

(٢) انظر : فصل « اللَّهو والفنون » من كتابنا « ملامح المجتمع المسلم » نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

مَسْجِد وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلا تُسْرِفُواْ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

أمر الله بنى آدم بأخذ الزينة ، كما أمرهم بالأكل والشرب ، ليتحقق فى الحياة عنصر الجمال بالزينة ، وعنصر البقاء بالطعام والشراب ، فلم يقصر الإسلام اهتمامه على ما ينفع ، بل شمل ما ينفع وما يلذ معاً .

وقد لفت القرآن الأنظار إلى عنصر الجمال والزينة فى الحياة فى أكثر من موضع ، كقوله تعالى فى معرض الامتنان بفوائد الأنعام : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (٢) . . . إلى أن يقول عن دوابّ الركوب : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

فانظر كيف اهتم كتاب الله بذكر الجمال والزينة ، فى سياق ذكر المنافع المادية المباشرة ، ليرقى بالذوق الإنسانى ، ويغرس فى وجدان المسلم الشعور بالجمال ، والإحساس بنعمة الله تعالى فيه .

وبعد ذلك بآيات قليلة فى السورة نفسها ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (٤) ، فالحلية شىء جميل لا شىء نافع كأكل لحم السمك الطرى . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ (٥) ، فالمعدن يُطرقَ أو يُصهر أو يُصقل بواسطة النار ابتغاء أمرين : إما الانتفاع به فى صناعة أو زراعة أو حرب ونحو ذلك ، وهذا هو المتاع ، وإما ابتغاء التجمل والتزين كالسوار والطوق والخاتم والقُرط وغيرها ، وهذا هو الحلية ، ومما له دلالة هنا : أن القرآن قدَّم الحلية على المتاع .

---

(١) الأعراف : ٣١ - ٣٢ (٢) النحل : ٥ - ٦ (٣) النحل : ٨
(٤) النحل : ١٤ (٥) الرعد : ١٧

إن القرآن فى عرضه لخصائص الأشياء ، وما تُقدمه من خدمة للناس ، يعنى بعنصر الجمال مع عناصر النفع الاقتصادى ، كقوله تعالى فى معرض الامتنان بالماء وما يحيا به من الزرع والنبات والشجر : ﴿ **فَأَنبَتْنَا به حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا** ﴾ (١) ، ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ (٢) ، ﴿ **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ** ﴾ (٣) ، فالبهجة فى الحدائق ، وفى أزواج النبات ، وفى طلع النخل المنضّد ، كلها عناصر جمال ينبه عليها القرآن المجيد ، ويوجّه إليها المشاعر والأحاسيس ، لتدرك من ورائها جمال صانعها وكماله : ﴿ **صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ** ﴾ (٤) ، ﴿ **الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ** ﴾ (٥) .

والكواكب يذكر القرآن منافعها من الهداية للسارين ، والرجم للشياطين ، ولا ينسى عنصر الجمال فيها ، حين يذكر فى غير سورة أن الله قد زيّن بها السماء : ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ** ﴾ (٦) ، ﴿ **وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ (٧) ، ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** ﴾ (٨) .

أليست هذه الآيات الكريمة تُعَد مفاتيح الناس للفنون الجميلة الراقية ، لا فنون الهبوط الحيوانى الذى يقوم على استثارة الغرائز والشهوات ؟

* *

● الزهد الذى جاء به الإسلام :

هذه هى نظرة الإسلام إلى طيبات الحياة ، وشرعية الاستمتاع بها .

---

(١) النمل : ٦٠ (٢) الحج : ٥ (٣) سورة ق : ١٠
(٤) النمل : ٨٨ (٥) السجدة : ٧ (٦) الصافات : ٦
(٧) الحجر : ١٦ (٨) الملك : ٥

أما الزهد الذى جاء به الإسلام ، فليس هو تحريم الطيبات ، ولا استدبار الحياة ، ولا رفض السعى للمعيشة ، أو العمل لترقية العمران .

إنما معناه الاستعلاء على شهوات الحياة وزخارف الدنيا ، وإيثار الآخرة على الأُولى ، إذا تعارضتا .

إنه أمر يتعلق بإرادة النفس أكثر مما يتعلق بمتاع الجسم ، ولهذا لم تكن حملة القرآن على الذين يتمتعون بطيبات الحياة الدنيا ، بل على الذين « يريدون الحياة الدنيا وزينتها » ، على معنى أنها هى أكبر همهم ومبلغ علمهم ، ومحور تفكيرهم ، وغاية سعيهم ونشاطهم .

قال تعالى : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ** ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى** ﴾ (٢) ، ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلا النَّارُ** ﴾ (٣) .

فالكلام كله موجَّه إلى ذم إرادة الحياة الدنيا ، لا على مجرد الحصول عليها أو التمتع بطيباتها .

ومن هنا يقسم القرآن الناس إلى صِنفين فقط :

صِنف يريد الدنيا ولذَّاتها العاجلة .

وصِنف يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ، ولكل منهما جزاؤه ثواباً أو عقاباً عند الله : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً** ﴾ (٤) .

---

(١) النجم : ٢٩ - ٣٠ (٢) النازعات : ٣٧ - ٣٩

(٣) هود : ١٥ - ١٦ (٤) الإسراء : ١٨ - ١٩

فما هو الفَيصل بين الفريقين ؟

إنه الإرادة ، أى الباعث والغاية ، لا جمع المادة ولا الحرمان منها .

فقد يكون الإنسان محروماً من الدنيا ، وهو مع ذلك مريد لها ، مولع بها، مؤثر لها ، وقد تكون الدنيا فى يده ، ومع هذا يسخِّرها ولا تُسخِّره ، ويملكها ولا تملكه ، إنها هى التى تريده ، وليس هو الذى يريدها ، إنها أداة فى يده ، وليست غاية فى قلبه وفكره .

كان هذا واضحاً عند سَلَف الأُمَّة فى خير القرون .

فلما لوَّثت الأفكار الدخيلة منابعهم الفكرية ، ظهر من جهلة المتصوِّفة مَنْ يتنكر للحياة ، ويدعو لما يشبه الرهبانية ، ويرحب بالفقر ويذمّ الغِنَى ، ويستدل ببعض الآيات والأحاديث ، استدلالاً غير صحيح ، بل هو من تحريف الأدلة عن مواضعها ، كما استندوا إلى أحاديث موضوعة أو لا أصل لها ، أو واهية أو منكرة ، لا يُؤخذ منها حكم ، ولا يُبنى على أساسها موقف .

من ذلك استدلالهم بالحديث القائل : « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر » (١) ، فليس المقصود من هذا الحديث حرمان المؤمن من طيبات الحياة ، كيف والله قد أحلَّها له صراحة ، بل جعلها جزاءً لإيمانه وعمله الصالح : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (٢) .

إنما المراد من الحديث : أن المؤمن فى هذه الدنيا مبتلى بالتكليف ، ومقيد بفكرة الحلال والحرام فى كل ما يأخذ ويدع ، فهو لا يفعل ما يشتهى بل ما ينبغى ، ولا يركض وراء ما يحلو له ، بل ما يليق به ، فكم من أشياء يقدر عليها ويتمناها ، ولكنه لا يُقدم عليها ، خشيةً من الله تعالى ، وابتغاء رضوانه ، فهذا معنى السجن الذى يُقيِّد حرية المؤمن فى الدنيا .

وأما جنة الكافر ، فهى جنة فى الظاهر المرئى ، لجسمه لا لروحه ، ينطلق

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة (٢٩٥٦) .

(٢) النحل : ٩٧

فيها وراء الملذَّات ، ولا يتقيد بتكاليف والتزامات ، وإن كانت هذه الجنة المزعومة عند العارفين هى النار الحقيقية التى تكوى الروح ، وتعذِّب ضمير الإنسان .

كما أن المؤمن فى هذه الدنيا مبتلىٰ على قدر إيمانه وتشبثه به ، ولا سيما فى أيام الفتن ، وفى الحديث : « أشد الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . . . » [1] ، أما الكافر فهو كثيراً ما يُستدرج من الله كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [2] .

ولكن الله قيَّض لهذا الدين مَن ينفى عنه زيف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فرأينا رجلاً مثل أبى الفرج ابن الجوزى ، يحمل فى كتبه - وخاصة « تلبيس إبليس » - على غلو المتزهدة والمتصوِّفة ، ويردّ عليهم بالكتاب والسُّنَّة ، وعمل السَّلَف الصالحين من الصحابة ومَن تبعهم بإحسان .

بل رأينا من المتصوِّفة أنفسهم مَن يرد على الغلاة والمنحرفين ، قولاً وعملاً ، ومَن كان يسلك مريديه وهم فى حِرَفهم [3] ، ويقول : ما أجمل أن يجعل النجار منشاره مسبحته ، وأن يجعل الفلاح فأسه مسبحته ، ويجعل الحداد مطرقته مسبحته !

أما موقف الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين من الزهد فى متع الحياة والرضا بشظف العيش ، فليس فرضاً على الناس - كل الناس - أن يسيروا على طريقتهم فى خشونة المعيشة ، ولم يلزموا هم الأُمَّة بذلك .

إنما أرادوا أن يضربوا مُثُلاً للأئمة والحكام من بعدهم : أن يجعلوا الحكم

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والدارمى والطحاوى وابن حبان والحاكم عن سعد ، صحيح الجامع الصغير (٩٩٢) .

(٢) الأنعام : ٤٤ (٣) كما قالوا عن الشيخ الخوَّاص وغيره .

مغنماً لا مغرماً ، وتضحية لا مكسباً ، وأن يهوّنوا على الفقير فقره إذا اتخذ منهم قدوة .

* *

● العنصر المعنوى فى الحياة الطيبة :

والحياة الطيبة لا تقوم بالجانب المادى وحده ، فقد يتوافر للإنسان المطعم الهنىء ، والمشرب المرىء ، والملبس الفاخر ، والمركب الفاره ، والمسكن الواسع ، والمرأة الجميلة ، ومع هذا كله لا تتحقق له الحياة الطيبة .

إن أساس الحياة الطيبة هو سكينة النفس ، وانشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، فبهذه المعانى تجمل الحياة ، ويطيب العيش .

روى الإمام أحمد وابن ماجه عن رجل من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : كنا فى مجلس فطلع علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا : يا رسول الله ؛ نراك طيب النفس ! قال : « أجل » ، ثم خاض القوم فى ذكر الغِنَى ، فقال رسول الله : « لا بأس بالغِنَى لمن اتقى الله عَزَّ وجَلَّ ، والصحة لمن اتقى خير من الغِنَى ، وطيب النفس من النعيم » (١) .

وهكذا بيّن لهم أن الغِنَى لا بأس به ولا حَرَج فيه ، ولكن الصحة خير منه . ذلك أن المريض الذى يعانى الآلام لا ينعم بغناه ، وخير من هذا وذاك طيب النفس ، فهو فى الحقيقة نفحة من نعيم الخلد ، يعجل الله بها فى الدنيا لمن يحب من عباده ، فهى من عاجل بُشرَى المؤمن .

فإذا كان الإنسان يبحث عن السعادة - لا عن المثل الأعلى فحسب - فإن السعادة ليست فى جمع الدنيا بعضها على بعض ، ولا امتلاك القناطير المقنطرة

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن يسار بن عبيد ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٧١٨٢) .

من الذهب والفضة ، فربَّ رجل يملك كنوز قارون وهو محروم منها ، معذَّب بها ، وهى بين يديه . لقد اتخذها له ربّاً ، فاتخذته لها عبداً ، أضناه التعب فى جمعها ، ويزداد تعباً فى حفظها ، ويزداد ويزداد فى تنميتها ، إنه يصبح ويمسى مهموماً حريصاً ، خانعاً طامعاً ، لا يقنع بقليل ، ولا يشبع من كثير ، ومثل هذا هو الذى قال الله فيه : ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ (١) ، أصبحت أموالهم أداة تعذيب لهم ، وقد طلبوها لتكون أداة هناءة ونعيم .

وفى مثل هؤلاء ورد الحديث النبوى : « مَن كانت الدنيا همه : فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له . ومَن كانت الآخرة نيته : جمع الله له أمره ، وجعل غِناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » (٢) .

وفى عصرنا كم رأينا من أصحاب الملايين مَن يعيش طول عمره محروماً مما يجده الفقير والمسكين ، لما يعانيه من مرض السكر ، أو ضغط الدم ، أو عُسر الهضم ، أو ضعف الكبد ، أو قرحة المعدة ، أو غيرها مما يزداد انتشاراً بين الأثرياء .

كل هذا يؤكد لنا أن السعادة فى شىء آخر وراء وفرة الغنى ، وكثرة المال ، واقتناء الملايين ، هذا الشىء هو الإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، فهما ينبوع السعادة الحقة ، والحياة الطيبة كما قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (٣) .

---

(١) التوبة : ٥٥

(٢) رواه ابن ماجه عن زيد بن ثابت (٤١٠٥) ، وقال البوصيرى فى الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات ، وانظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٥١٦) .

(٣) النحل : ٩٧

أما المال ولزومه ، فالذى يعنى المؤمن لسعادته منه هو ما يكفيه ، ويغنيه عن سؤال غيره ، فهذا حسبه مع العافية والأمن . وفى الحديث : « مَن أصبح آمناً فى سربه ، معافىً فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » (١) .

* * *

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والترمذى وابن ماجه عن عبد الله بن محصن ، وابن حبان وأبو نعيم فى الحلية عن أبى الدرداء ، وابن أبى الدنيا عن ابن عمر ، وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٠٤٢) .

obeikandl.com

obeikandl.com

اقتصاد وَسَطىّ

ومن القيَم الرئيسة فى الاقتصاد الإسلامى : قيمة الوَسَطية ، أو التوازن ، بل هذه الوَسَطية العادلة فى الواقع هى روح هذا الاقتصاد ، فكما أن للإنسان روحاً يحيا به ، وراء هيكله المادى الحسِّى ، وهو سر تميزه وكرامته ، كذلك للأنظمة روح يسرى فيها ويميزها عن غيرها ، سواء أكانت أنظمة اقتصادية أم اجتماعية أم سياسية .

● الفردية أساس النظام الرأسمالى :

فروح النظام الرأسمالى يتجلى فى تقديس الفرد ومصلحته الشخصية وحريته التى تكاد تكون مطلقة فى تملكه المال وتنميته وإنفاقه ، وخلق تلك العقلية النفعية الفردية الانتهازية ، التى لا تهتم بغيرها ما لم يكن من ورائه كسب ، ولا يعنيها مصلحة المجتمع ولا سيما إذا اصطدمت بمصلحته ، ولا يشغلها إلا منافسة الخصوم والتغلب عليهم ، تلك العقلية التى لا يهمها إلا الربح المادى بأكبر قدر ممكن ، وبكل سبيل مستطاع ، وخاصة من النقود التى هى الإلَه المعبود فى ظل هذا النظام ، إذ هى الوسيلة إلى القوة والمتعة ، والمجد والشهرة ، وأعظم المعابد لهذا الإلَه هى الأسواق والبنوك ، وتكاد تكون قيمة الناس فى المجتمع الرأسمالى بمقدار ما يملكون من تلك النقود .

فقيمة رب الألف ألف وزِدْ تزد وقيمة رب الدرهم الفرد درهم !

إنَّ الفرد فى هذا النظام هو محور الحركة الاقتصادية ، وهو المحرِّك ، وهو الهدف ، وما على الدولة إلا أن تترك الحرية الكاملة لهؤلاء الأفراد ليقوموا بنشاطهم الاقتصادى ، كما يريدون وكما يستطيعون ، وليُجرِّب كل فرد حظه ، وليُثبت كفايته وموهبته ، وليتحمل نتيجة سعيه ، جاءه بالربح أو بالخسارة ، وما على الأفراد إلا أن يحترموا النظام العام والقانون .

يشعر الفرد فى هذا النظام بقيمته وذاتيته ، وتتفتح مواهبه ، وتنمو شخصيته ، ولكنه فى الغالب مصاب بداء الأنانية والمادية والنفعية ، محموم بالشراهة إلى التملك ، كأنه جهنم التى يُقال لها : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟

أما المجتمع - وبخاصة الضعفاء والمسحوقون فيه - فهم مُهمَلون ، أو فى زوايا النسيان .

* *

● النظام الاشتراكى يسحق الفرد :

وروح النظام الاشتراكى يتمثل فى سوء الظن بالفرد ، ومصادرة نزعته إلى التملك والغنى ، واعتبار مصلحة المجتمع - الذى تمثله الدولة - فوق كل فرد وكل شىء .

إنَّ إقرار مبدأ المِلْكية فى زعمه هو مصدر كل جَور وكل حَيف ، فلا بد من إلغائه وهدمه وهدم المنتفعين به ، والمؤيدين لشرعيته ، ولو بالعنف وإثارة الأحقاد والضغينة ، والانقلاب الدموى ، حتى تتحقق مساواة اقتصادية فعلية بين الجميع .

يعتمد النظام الاشتراكى فى تحقيق أهدافه على السُلْطة ، أى سُلْطة الدولة - أو دكتاتورية الدولة - الدولة فى هذا النظام هى المحرِّك ، وهى الموجِّه .. لا يدخل الفرد فى عمليات الإنتاج والتبادل ونحوهما كعامل أساسى فعَّال ، وإنما ينفذ الأوامر والتعليمات الصادرة له عن السُلْطة العليا .

إنَّ وضع الأفراد فى هذا النظام - كما قال أحد الكُتَّاب - أشبه بوضع الجنود وصغار الضباط المحاربين فى جبهة من الجبهات ، فهم لا يضعون خطة المعارك التى يخوضونها ، ولا يشاركون فى وضعها ، وإنما كل عملهم أن ينفذوا ما ترسمه لهم القياة العامة التى يخضعون لها ، إن أمرت بالتقدم تقدَّموا ، أو بالتقهقر تقهقروا ، ولا يملكون أن يقولوا : لِمَ ؟ وكيف ؟ فضلاً عن أن يقولوا : لا .

لقد أعطى النظام الرأسمالى الفرد حتى تضخَّم وطغى ، على حساب المجتمع ومصالحه المادية والمعنوية . . وسلب النظام الاشتراكى الفرد كل ما أعطاه النظام السابق ، فضمر وانكمش ، وفقد الحافز والشخصية ، سلبه ذلك كله ، ومنحه لشيء اسمه المجتمع ، الذى تجسّد فى « الدولة » فتضخَّمت وطغت ، وما هى فى الحقيقة إلا جهاز مكوَّن من عدة أفراد ، فالنتيجة أن أفراداً قليلين تضخَّموا وطغوا ، على حساب الآخرين ، وهم الأكثرية .

* *

● الوَسَطية العادلة أساس النظام الإسلامى :

لهذا كان روح النظام الإسلامى هو الوَسَطية المعتدلة التى ميَّز الله بها هذه الأُمَّة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (١) ، وتتجلى هذه الوسطية فى التوازن المُقْسط الذى أقامه الإسلام بين الفرد والمجتمع ، كما أقامه فى كل المتقابلات الأخرى : بين الدنيا والآخرة ، بين الجسم والروح ، بين العقل والقلب ، بين المثال والواقع ، بين وازع الإيمان ووازع السلطان . . إلى غير ذلك من الثنائيات المعروفة .

لم يَجُر الاقتصاد الإسلامى على المجتمع - وبخاصة الضعفاء منه - كما جارت الرأسمالية .

ولم يَجُر على الفرد وحقوقه وحرياته ، كما جارت الاشتراكية ، وبخاصة الماركسية .

بل كان عادلاً بينهما ، بلا تفريط ولا إفراط ، ولا طغيان ولا إخسار ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (٢) .

لقد أعطى كُلا منهما حقه ، وطلب منه أداء واجبه ، حاكماً بينهما بالعدل ،

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) الرحمن : ٧ - ٩

موزعاً عليهما التبعات بالقسط [1] ، ولم يفعل ذلك تفادياً لغلواء الاشتراكية ، أو طغيان الرأسمالية ، كلا ، فهو سابق على كلتيهما ، ولكن الله الذى شرعه يعلم المفسد من المصلح ، فهو شرع الله العليم الحكيم .

* *

● الاقتصاد جزء من نظام الإسلام :

إن الاقتصاد الإسلامى جزء من النظام الإسلامى العام الذى يقوم على أساس الوَسَطية والتوازن العادل ، فهو يوازن بين الدنيا والآخرة ، ويوازن فى الدنيا بين الفرد والجماعة ، ويوازن فى الفرد بين جسمه وروحه ، بين عقله وقلبه ، بين مثاليته وواقعيته .

وفى المجال الاقتصادى نجد تطبيق مبدأ التوازن فى كل الجوانب .

فهو يوازن بين رأس المال والعمل ، ويوازن بين الإنتاج والاستهلاك ، ويوازن بين المنتجات بعضها وبعض ، ويوازن بين مصالح المنتجين والوسطاء والمستهلكين ، ويوازن بين الفئات الاجتماعية بعضها وبعض .

ولكن أهم القِيَم الوَسَطية التوازنية الكبرى التى جاء بها الإسلام فى مجال الاقتصاد تتعلق بجانبين من أبرز الجوانب :

الجانب الأول : يتصل بالمال بين الديانات والمذاهب والفلسفات التى تعلن الحرب عليه وعلى الدنيا والحياة وطيباتها . وبين المذاهب المادية التى تكاد تجعل المال إلهاً معبوداً ، وتجعل الدنيا أكبر همها ، ومحور اهتمامها وتفكيرها .

---

(١) انظر : خصيصة « الوَسَطية » وموقف الإسلام من الفردية والجَماعية من كتابنا « الخصائص العامة فى الإسلام » ص ١٣٥ وما بعدها ، طبع مكتبة وهبة بمصر ، والرسالة ببيروت .

والجانب الآخر : يتصل بالملْكية بين المسرفين فى إثباتها ، أيّاً كانت طرق اكتسابها ، المدللين لأصحابها ، فتكاد تكون لهم كل الحقوق دون أن يكون عليها واجبات . . وبين الذين يحاربون الملْكية ، ويرونها منبع كل شر وظلم ، ويعملون على إلغائها من الحياة ، ومحو أصحابها من المجتمع .

وسنعرض لكل من هذين الأمرين بشىء من التفصيل المناسب لأهميتهما .

* * *

obeikandl.com

وَسَطية الإسلام فى موقفه من المال

● موقف الإسلام من الدنيا :

موقف الإسلام من المال : جزء من موقفه من الحياة الدنيا .

وموقف الإسلام من الدنيا هو الموقف الوَسَط المتوازن ، فهو لا يميل مع الذين يرفضون الدنيا بالكلية ، ويرون أن هذه الحياة ، وهذا العالَم ، شر يجب الخلاص منه بالتعجيل بفنائه ، وذلك بالامتناع من الزواج والإنجاب ، والإعراض عن طيبات الحياة ، من المأكل والمشرب والملبس والزينة وغيرها من متاع الحياة الدنيا ، والانقطاع عن العمل بجد لهذه الدنيا .

وتلك هى فلسفة البراهمة فى الهند ، والبوذيين فى الصين ، والمانويين فى فارس ، والرواقيين فى اليونان ، والرهبان فى النصرانية .

كما لا يميل الإسلام مع الذين يجعلون الدنيا معبودهم ، اتخذوها رباً ، فاتخذتهم لها عبيداً ، لها يكدحون ، وعليها يحرصون ، وفى سبيلها يتهارشون تهارش الذئاب ، وعلى جيفتها يتساقطون تساقط الذباب .

وذلك هو موقف الماديين والدُّهريين فى كل زمان ، وفى كل مكان ، ممن لا مكان للآخرة فى تفكيرهم ولا اعتبارهم ، الذين يقولون : إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ! : ﴿ **وَقَالُواْ إِنْ هِىَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾ (١) .

وهذه هى النظرة الشيوعية العقائدية للحياة ، لهذا كان دستورهم ينص على : أن لا إله ، والحياة مادة .

---

(١) الأنعام : ٢٩

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

يقف الإسلام موقفاً وَسَطاً بين هؤلاء هؤلاء ، فهو يعتبر الدنيا مزرعة للآخرة ، وطريقاً إليها ، والطريق ينبغى أن يكون مريحاً وجميلاً ، حتى يوصل إلى نهاية الرحلة بسلام وأمان .

وقد ذكرنا فى الخصيصة الماضية : الاستمتاع بطيبات الحياة بمختلف صنوفها وألونها .

والقرآن يقول فى شأن المؤمنين : ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى فى معرض المدح : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

وقال أنس : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : « اللَّهم آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقِنا عذاب النار » (٤) .

وكان من دعائه ما رواه أبو هريرة : « اللَّهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » (٥) .

وروى عنه ابن مسعود أنه كان يقول : « اللَّهم إنى أسألك الهُدَى والتُقَى والعفاف والغِنَى » (٦) .

---

(١) يونس : ٧ - ٨ (٢) آل عمران : ١٤٨ (٣) البقرة : ٢٠١

(٤) متفق عليه : البخارى : ٨/ ١٤٠ ، ١١/ ١٦١ ، ومسلم (٢٦٩٠) .

(٥) رواه مسلم عن أبى هريرة (٢٧٢٠) . (٦) رواه مسلم (٢٧٢١) .

وأتاه رجل فقال : يا رسول الله ؛ كيف أقول حين أسأل ربى ؟ قال : « قل : اللَّهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى ، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » (١) .

وإذا كان الدعاء يجسد الخيرات والمطامح التى ينشدها المسلم فى حياتيه : الدنيا والآخرة ، فإن الاستعاذة تجسد الشرور والمكاره التى لا يحبها المسلم ، فى دينه ولا دنياه .

ومن ذلك : ما رواه أنس : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجُبْن والهرم ، والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » . . وفى رواية : « وضَلَع الدين وغلبة الرجال » (٢) .

وضَلَع الدين : غلبته وشدته ، وغلبة الرجال : قهرهم وسيطرتهم .

وروى عنه أبو هريرة : « تعوَّذوا بالله من جَهْد البلاء ، ودَرَك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » (٣) .

وجَهْد البلاء : مشقته ، ودَرَك الشقاء : إدراكه وإصابته .

وهكذا نجد الاستعاذة من كل أنواع الشرور والبلاء فى الدارين : الأولى والآخرة .

وهذا هو التوازن الذى هو شعار الإسلام ، وهو الذى فقهه الصحابة عن الله ورسوله ، فعاشوا فى دين لا ينعزل عن الدنيا ، ودنيا لا تنفصل عن الدين ، وشاع عن أكثر من واحد منهم قوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٩٦) .

(٢) متفق عليه : البخاري : ١١/ ١٥٢ ، ومسلم (٢٧٠٦) .

(٣) متفق عليه : البخاري : ١١/ ٤٤٩ ، ومسلم (٢٧٠٧) .

وكان منهم التجار الكبار والأثرياء ، كابن عوف وابن عفان ، ومنهم الزُهَّاد المتقللون ، كأبى الدرداء وسلمان ، وجميعهم مشغولون بهداية العالَم إلى دين الله ، ونشر الإسلام فى أرجاء الأرض ، فتلك كانت دنياهم .

وفى ضوء هذه النظرة الوَسَطية إلى الدنيا كانت النظرة إلى المال .

* *

● المال خير وزينة للحياة وقوام لِلناس :

إن الإسلام قد شرع للناس التمتع بطيبات الحياة وزينتها ، واعتبر الحياة الاقتصادية الطيبة معواناً على الارتقاء بالنفس ، وحُسْن الصلة بالله تعالى ، والبر بخلقه ، وبهذا بدت لنا ملامح النظرة الإسلامية إلى المال ، إذ هو وسيلة إلى ذلك الخير ، وما أدَّى إلى الخير فهو خير ، فليس المال دائماً نقمة على صاحبه ، ولا هو من عطاء الأرواح الشريرة كما يزعم بعض أهل الأديان ، وليس الفقر شعار الصالحين ، كما ادَّعى بعض المتصوِّفة ، بل المال قد سمَّاه القرآن « خيراً » فى مواضع من سوره ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ (١) ، أى لحب المال ، فقد بيَّن فى هذه الآية أن حب المال طبيعة الإنسان ، وقوله تعالى : ﴿ **يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ (٤) ، فسمَّى المال فى هذه المواضع خيراً ، وهى تسمية تنبىء عن الرضا والثناء ، لا عن السخط والذم .

ولم يعتبر الإسلام الغِنَى حائلاً بين الغَنِىّ وارتقاء أسمى الدرجات فى

---

(١) العاديات : ٨ (٢) البقرة : ٢١٥

(٣) البقرة : ١٨٠ (٤) البقرة : ٢١٥

التقرب إلى الله خلافاً لما يروى عن المسيح فى الإنجيل من قوله للشاب الذى أراد أن يدخل معه ويتبعه : « إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك ، وأعطها الفقراء ، وتعال اتبعنى ، فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً ؛ لأنه كان ذا أموال كثيرة » (١) .

هنا قال يسوع المسيح لتلاميذه : « الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » ! (٢) بل امتنَّ الله على رسوله بالغنى فقال : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (٣) ، وقال الرسول عليه السلام لعمرو بن العاص : « يا عمرو ؛ نِعمّا بالمال الصالح للمرء الصالح » (٤) ، وقال : « ما نفعنى مال قط ، ما نفعنى مال أبى بكر » (٥) ، وكان من دعائه : « اللَّهم إنى أسألك الهُدَى والتُقَى ، والعفاف والغِنَى » (٦) ، ومن استعاذاته : « اللَّهم إنى أعوذ بك من الفقر والكفر » (٧) ، وقال لسعد بن أبى وقاص : « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » (٨) ،

---

(١) انظر : إنجيل متى ، الإصحاح ١٩ ، فقرة ٢٢

(٢) المصدر السابق ، فقرة ٢٣ ، ٢٤ (٣) الضحى : ٨

(٤) رواه أحمد عن عمرو بن العاص : ٢٠٢/٤ ، وقال الهيثمى (٣٥٢/٩ ، ٣٥٣) : رواه أحمد وأبو يعلى ، ورجالهما رجال الصحيح ، وصححه ابن حبان (الموارد : ٢٢٧٧) ، والحاكم وصححه على شرط مسلم : ٢٣٦/٢ ، وقال الذهبى : صحيح (فقط) .

(٥) رواه أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة ، صحيح الجامع الصغير (٥٨٠٨) .

(٦) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود ، المصدر المذكور (١٢٧٥) .

(٧) رواه الحاكم والبيهقى فى الدعاء عن أنس ، المصدر السابق (١٢٨٥) .

(٨) متفق عليه عن سعد ، وهو جزء من حديث طويل ، رواه البخارى (١٣٢/٣) ، ومسلم (١٦٢٨) .

وفى حديث الصحيحين : « ذهب أهل الدثور بالأُجور » [1] ما يدل على تفضيل الغَنِىّ الشاكر على الفقير الصابر ، ومثله حديث ابن مسعود : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلِّمها » [2] .

وقد أكد القرآن الكريم فى غير موضع أن الغِنَى ، ورغد العيش ، ووفرة المال ؛ كثيراً ما تكون مثوبة عاجلة من الله تعالى للمؤمنين المتقين من عباده ، على ما قدَّموا من عمل صالح ، وجهاد مشكور ، وسعى مبرور ، كما أن الفقر والجوع ، وضيق الرزق ، وضنك العيش ، كثيراً ما تكون عقوبات قدرية ، يعجلها الله فى الدنيا لمن انحرف عن صراطه المستقيم ، وهَدْيه الكريم ، كقوله تعالى لأبوى البَشر - آدم وزوجه - وقد خرجا من جنة لا يجوع ساكنها ولا يعرى ، ولا يظمأ فيها ولا يَضْحى ، إلى أرض لا بد فيها من العمل والكدح ، ليُحصِّل الإنسان أسباب بقائه : ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ [3] .

وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَّكُمْ أَنْهَاراً** ﴾ [4] .

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة بلفظ : « ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلا والنعيم المقيم » ، ورواه مسلم عن أبى ذر بلفظ : « ذهب أهل الدثور بالأجور . . » الحديث ، البخارى : ٢/ ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ومسلم (٥٩٥) ، وقد ذكر النووى هذا الحديث فى باب « فضل الغنى الشاكر » .

(٢) متفق عليه ، البخارى : ١/ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ومسلم (٨١٦) .

(٣) طه : ١٢٣ - ١٢٤ (٤) نوح : ١٠ - ١٢

وقال تعالى على لسان هود لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ (١) .

وقال جَلَّ شأنه فى شأن أهل الكتاب : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ (٢) .

وقال فى أهل القرى كافة : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣) .

وهذا كما يصدق على الجماعات يصدق على الأفراد ، ولئن جاء وعد الله فيها بصيغ الجمع ، لقد جاء فى آيات أخرى بصيغة العموم الشاملة للمفرد والجمع ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٤) .

فالمال فى نظر الإسلام زينة الحياة ، وعصب العمران ، وقوام مصالح الناس ، قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٥) ، فبالمال تعمر الحياة المادية ، وبالبنين تعمر الحياة الإنسانية ، وقال جَلَّت حكمته : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (٦) ، والقيام والقوام ما به يقوم الشىء ويثبت كالعماد .

ومن ثَمَّ يأمر الإسلام بالمحافظة على المال ، وينهى عن تبذيره وإضاعته ، حتى إنه ليحجر على حرية كل متلاف مفسد لماله ، فإن للجماعة فى ماله نصيباً وحقاً ، ولهذا أضاف أموال السفهاء إلى جماعة المخاطَبين ، فقال : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ .

ومدح القرآن المعتدلين فى نفقتهم ، الموازنين بين دخلهم وخرجهم ، فقال :

---

(١) هود : ٥٢ (٢) المائدة : ٦٦ (٣) الأعراف : ٩٦
(٤) الطلاق : ٢ - ٣ (٥) الكهف : ٤٦ (٦) النساء : ٥

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (١) ، وذم المسرفين المبذِّرين فقال : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ (٢) .

وليس أدل على قيمة المال وأهميته فى نظر الإسلام ، من إنزال الله تعالى أطول آية فى كتابه فى تنظيم شأن من شئون المال ، وحفظه وصيانته ، وتوثيق معاملاته بالكتابة والإشهاد والرهن ونحوها ، وهى الآية المعروفة بآية المداينة ، وفيها يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ (٣) .

قال الإمام القرطبى فى تفسير الآية : لما أمر الله تعالى بالكتب والإشهاد وأخذ الرهان ، كان ذلك نصاً قاطعاً على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها ، ورداً على الجهلة المتصوِّفة ورعاعها الذين لا يرون ذلك ، فيخرجون عن جميع أموالهم ، ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم ، ثم إذا احتاج وافتقر عياله ، فهو إما أن يتعرض لمن الإخوان ، أو لصدقاتهم ، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظَلَمتهم ، وهذا الفعل مذموم منهى عنه . قال أبو الفرج ابن الجوزى : ولست أعجب من المتزهدين الذين فعلوا هذا ، مع قِلَّة علمهم ، إنما أتعجب من أقوام لهم علم وعقل ، كيف حثوا على هذا ، وأمروا به ، مع مضادّته للشرع والعقل . فذكر المحاسبى (٤) فى هذا كلاماً كثيراً ، وشيّده أبو حامد الطوسى (٥) ونصره ، والحارث عندى أعذر من أبى حامد ؛ لأن أبا حامد كان أفقه ، غير أن دخوله فى التصوف أوجب عليه نُصرة ما دخل فيه .

---

(١) الفرقان : ٦٧ (٢) الإسراء : ٢٧ (٣) البقرة : ٢٨٣

(٤) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد ، الزاهد المحاسبى ، وسمى المحاسبى لكثرة محاسبته لنفسه (عن أنساب السمعانى) .

(٥) أبو حامد هو الإمام الغزالى حُجة الإسلام ، صاحب « الإحياء » ، و« المستصفى » وغيرهما .

قال أبو حامد : فمَن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم ، لم يشك فى أن فقد المال أفضل من وجوده ، وإن صُرِف إلى الخيرات ؛ إذ أقل ما فيه اشتغال الهمة بإصلاحه عن ذكر الله ، فينبغى للمريد أن يخرج عن ماله ، حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته ، فما بقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى ، قال ابن الجوزى : وهذا كله خلاف الشرع والعقل ، وسوء فهم المراد بالمال ، وقد شرَّفه الله وعظَّم قدره ، وأمر بحفظه ، إذ جعله قواماً للآدمى الشريف ، فهو شريف ؛ فقال تعالى : ﴿ **وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً** ﴾ (١) .

ونهى جَلَّ وعَزَّ أن يُسلَّم المال إلى غير رشيد فقال : ﴿ **فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ (٢) ، ونهى النبى ﷺ عن إضاعة المال (٣) ، وقال لسعد : « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » (٤) ، وقال : « ما نفعنى مال كمال أبى بكر » (٥) . وقال لعمرو ابن العاص : « نِعم المال الصالح للرجل الصالح » (٦) ، ودعا لأنس ، وكان فى آخر دعائه : « اللَّهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه » (٧) ، وقال كعب : يا رسول الله ؛ إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » (٨) .

قال ابن الجوزى : هذه الأحاديث مخرَّجة فى الصحاح ، وهى على خلاف

---

(١) النساء : ٥ (٢) النساء : ٦

(٣) يشير إلى حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه : « إنَّ الله حرَّم عليكم : عقوق الأُمهات ، ووأد البنات ، ومنعاً وهات ، وكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » ، صحيح الجامع (١٧٤٩) .

(٤) ، (٥) ، (٦) تقدم تخريجها قريباً .

(٧) رواه البخارى وغيره عن أنس .

(٨) رواه مسلم عن كعب بن مالك فى حديث طويل برقم (١٦٩٦) ، كما رواه أبو داود (٤٤٤٠) ، والترمذى (١٤٣٥) ، والنسائى : ٤/٥١ وغيرهم .

ما تعتقده المتصوِّفة من أن إكثار المال حجاب وعقوبة ، وأن حبسه ينافى التوكل ، ولا ينكر أنه يخاف من فتنته ، وأن خلقاً كثيراً اجتنبوه لخوف ذلك ، وإن جمعه من وجهه ليَعزّ ، وأن سلامة القلب من الافتنان به يقل ، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يندر ، فلهذا خيف فتنته . فأما كسب المال : فإن مَن اقتصر على كسب البُلغة من حلّها فذلك أمر لا بد منه ، وأما مَن قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال نُظر فى مقصوده ؛ فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود ، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته ، وادخر لحوادث زمانه وزمانهم ، وقصد التوسعة على الإخوان ، وإغناء الفقراء ، وفعل المصالح ، أُثيب على قصده ، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات ، وقد كانت نيَّات خلق كثير من الصحابة فى جمع المال سليمة لحسن مقاصدهم بجمعه ، فحرصوا عليه ، وسألوا زيادته .

ولما أقطع النبى ﷺ الزبير حُضْر [1] فرسه أجرَى الفرس حتى قام (أى وقف) ثم رمى سوطه فقال : « أعطوه حيث بلغ سوطه » [2] .

وكان سعد بن عبادة يقول فى دعائه : « اللَّهم وسِّع علىّ » .

وقال إخوة يوسف : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ [3] .

وقال شعيب [4] لموسى : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ﴾ [5] .

وإن أيوب لما عوفى نُثِر عليه رِجْل [6] من جراد من ذهب ، فأخذ يحثى فى جيبه ويستكثر منه ، فقيل له : أما شبعتَ ؟ فقال : يا رب ، فقير يشبع

---

(١) أى مقدار ما تعدو فرسه عدوة واحدة . والحُضْر - بضم فسكون - والإحضار : ارتفاع الفرس فى عَدْوه .

(٢) رواه أبو داود فى الإمارة عن ابن عمر (٣٠٧٢) ، وأحمد فى المسند : ٢/١٥٦ ، وفى إسناده راو فيه مقال .

(٣) يوسف : ٦٥

(٤) ليس هناك دليل على أنه نبى الله شعيب ، فالصحيح أن شعيباً كان قبل موسى عليهما السلام .

(٥) القصص : ٢٧

(٦) الرِجْل - بكسر فسكون - : الطائفة من الشىء (أنثى) ، وخص بعضهم به القطعة العظيمة من الجراد .

من فضلك ! ، وفى رواية : « لا غِنَى بى عن بركتك » [1] ، وهذا أمر مركوز فى الطباع .

ورد ابن الجوزى على الغزالى فى قوله : « ترك المال الحلال أفضل من جمعه » ، فقال : ليس كذلك ، ومتى صحَّ القصد فجمعه أفضل بلا خلاف عند العلماء ، وكان سعيد بن المسيب يقول : لا خير فيمن لا يطلب المال ؛ يقضى به دَيْنه ، ويصون عِرضه ، فإن مات تركه ميراثاً لمن بعده ، وخلّف ابن المسيب أربعمائة دينار ، وخلّف سفيان الثورى مائتين ، وكان يقول : المال فى هذا الزمان سلاح ، وما زال السَلَف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء ، وإنما تحاماه قوم منهم إيثاراً للتشاغل بالعبادات وجمع الهمّ ، فقنعوا باليسير ، فلو قال هذا القائل : إن التقليل منه أولى ؛ قرب الأمر ، ولكنه زاحم به مرتبة الإثم .

قال القرطبى : « قلت : ومما يدل على حفظ الأموال ومراعاتها إباحة القتال دونها وعليها ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَن قُتِل دون ماله فهو شهيد » [2] اهـ [3] .

* *

● الاستعاذة من فتنة الفقر :

ومما يؤكد قيمة المال ومكانته فى نظر الإسلام : موقف الإسلام من الفقر ، واستعاذة الرسول ﷺ من شره فى أكثر من حديث .

---

(١) رواه البخارى : ١/ ٣٣١ ، ٦/ ٣٠٠

(٢) رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمرو ، والترمذى وابن حبان عن سعيد ابن زيد ، والنسائى عن بريدة ، صحيح الجامع الصغير (٦٤٤٤) .

(٣) من تفسير القرطبى لآية المداينة وانظر تلبيس إبليس لابن الجوزى .

فتروى عنه عائشة رضى الله عنها أنه كان يقول : « . . . وأعوذُ بك من شر فتنة الغِنَى ، ومن شر فتنة الفقر » (١) .

بل هو فى بعض الأحاديث يقرن الفقر بالكفر ، فيقول : « . . . وأعوذُ بك من الفقر والكفر » (٢) .

وفى حديث آخر يتعوَّذ بالله من بعض مظاهر الفقر وآثاره ، وهو الجوع ، فقد كان يقول : « اللَّهم إنى أعوذُ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع » (٣) .

وبيَّن الرسول الكريم أن الفقر يمكن أن يوقع الإنسان فيما لا يحبه من الشر والمعصية ، كابنة العم التى اضطرها القحط والجوع أن تسلم إلى ابن عمها نفسها كرهاً عنها ، كما فى حديث الثلاثة أصحاب الغار (٤) .

ومثل ما أشار إليه حديث الذى تصدَّق بصدقة فأخفاها فى ليال ثلاث . وفيه : « أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها » وهو يومىء إلى أن الفقر من أسباب الوقوع فى جريمة السرقة ، وفاحشة الزنى (٥) .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات : ١١/ ١٥١ ، وأبو داود (١٥٤٣) ، والترمذى (٣٤٨٩) .

(٢) جزء من حديث رواه الحاكم والبيهقى فى الدعاء عن أنس ، كما فى صحيح الجامع الصغير (١٢٨٥) ، وفى حديث آخر عند الحاكم : « اللَّهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر ، وأعوذُ بك من عذاب القبر » رواه عن أبى بكرة وصحَّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى : ١/ ٣٥

(٣) رواه أبو داود (١٥٤٧) ، وصحَّحه النووى فى الرياض ، والنسائى : ٨/ ٢٦٣

(٤) الحديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما ، وهو أول حديث فى الترغيب والترهيب للمنذرى .

(٥) لشيخنا محمد الغزالى بحث قيم عن علاقة الأسباب الاقتصادية بالفضائل والرذائل فى كتابه « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » .

وفى صحيح مسلم من دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللَّهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن . . أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنى الدَّيْن ، وأغننى من الفقر » (١) .

فهذا الدعاء العظيم بهذه المقدمة الهائلة ، والثناء الجليل على الله ، تباركت أسماؤه ، لا يريد من ورائه إلا قضاء الدَّيْن عنه ، وأن يغنيه من الفقر .

وقد بيَّنتُ فى كتابى « مشكلة الفقر » موقف الإسلام منه ، ووضَّحت خطره على العقيدة ، وعلى العبادة ، وعلى التفكير ، وعلى الخُلُق والسلوك ، كما بيَّنتُ خطره على الأسرة ، ويكفى ما أشار إليه القرآن من أن بعض الآباء قتلوا أولادهم من أجل إملاق (أى فقر) واقع ، أو خشية إملاق متوقع كما قال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ (٢) ، ﴿ **وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً** ﴾ (٣) ، وهو يدل بوضوح على تأثير الاقتصاد فى سلوك الناس وعلاقاتهم ، وهو ما لا ننكره ، وقد دلَّت عليه النصوص ووقائع الحياة ، إنما الذى ننكره على الفلسفة الماركسية : نظرتها المادية الخالصة ، واعتبارها الاقتصاد هو المؤثر الأوحد فى الحياة ، وجحود التأثيرات الدينية والخُلُقية والمعنوية ، مع أن أهم ما يحرك الإنسان هو فكره وعقيدته قبل أى شيء آخر ، وأبرز ما يغير حياته أن يغير ما بنفسه ، فإذا كانت فلسفة الماركسية تقول : غَيِّر الاقتصاد يتغيَّر التاريخ ، ففلسفة الإسلام تقول : غَيِّر نفسك - أو غَيِّر ما بنفسك - يتغيَّر التاريخ ، وهو ما عبَّر عنه القرآن بقوله : ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ (٤) .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) الأنعام : ١٥١
(٣) الإسراء : ٣١
(٤) الرعد : ١١

كما بيَّنتُ فى ذلك الكتاب خطر الفقر على المجتمع وتماسكه واستقراره ، ونهوضه برسالته ، فيلزم مراجعة هذا الفصل المهم هناك (١) .

* *

● المال فتنة واختبار للأفراد والجماعات :

وإذا لم يكن المال شراً ولا نقمة - كما يزعم بعض الناس أنه كذلك - فليس هو مقياساً لقيمة مالكه ، أو عنواناً لفضله وصلاحه ، كما يزعم آخرون أنه كذلك ، بل هو نعمة من الله يمتحن بها أصحابها : أيشكرون أم يكفرون ؟ ولهذا سمَّاه الله « فتنة » أى اختباراً ومحنة ، كالنار للذهب ، قال تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٢) .

ومن هنا نجد المال فى يد المؤمن البار ثواباً من الله له ، كما نجده فى يد الكافر الفاجر استدراجاً من الله له ، ومكراً به : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى استدراج الفجرة العتاة : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٤) .

ورد القرآن على المترفين الذين وقفوا فى وجه الرسالات السماوية ، وزعموا أن أموالهم وأولادهم تدفع عنهم عذاب الله وسخطه فقال : ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) انظر : فصل (موقف الإسلام من الفقر) فى كتابنا « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » .
(٢) الأنفال : ٢٨
(٣) الإسراء : ٢٠
(٤) الأنعام : ٤٤
(٥) سبأ : ٣٥ - ٣٧

كما ذكر القرآن فى معرض الإنكار والتنديد قصة صاحب الجنَّتين ، وما كان من غروره وادعائه ، وتطاوله بماله ، وافتخاره به على صاحبه ، وقوله له : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ منكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسه قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذه أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّددتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾ (١) .

وأنكر على الإنسان أن يجعل سعة الرزق دليل كرامة من الله ، ويجعل ضيقه دليل هوان منه : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْه رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلا ﴾ (٢) .

فبيّن أن المال فى حال البَسط والتوسعة ، أو القبض والتضييق ، إنما هو ابتلاء من رب الإنسان للإنسان ، لا إهانة ولا إكرام . وفى الحديث : « إن الله يعطى الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب ، ولكنه لا يعطى الدين إلا مَن أحب » (٣) .

وقال تعالى مهدداً بعض المشركين المغرورين بأموالهم : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِين * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ ، بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤) .

والنتيجة من هذا : أن المال لا يُمدح لذاته ، ولا يُذم لذاته ، وإنما يُذم المال حين يُؤدِّى إلى غرور مالكه به ، أو طغيانه على غيره ، أو استعلائه واستكباره عن الحق ، أو حين يُؤخذ من غير حِلِّه ، أو يُنفق فى غير حقه ، أو يُمسك عن مستحقه .

---

(١) الكهف : ٣٤ - ٣٦ (٢) الفجر : ١٥ - ١٧

(٣) رواه أحمد عن ابن مسعود ، وضعَّفه الشيخ شاكر (٣٦٧٢) ، وروى الحاكم هذا الجزء من الحديث وصحّحه ، ووافقه الذهبى : ١/ ٣٣ ، ٣٤ ، وأعاده فى : ٤/ ١٦٥ ، وصَّححاه أيضاً .

(٤) المؤمنون : ٥٤ - ٥٦

ومن أمثلة ذلك كثير من أغنياء مكة الذين غرَّهم مالهم ، وأطغاهم غناهم ، فكفروا برسول الله ، وصدُّوا عن سبيل الله وهم يعلمون ، كأبى جهل ابن هشام الذى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ كَلا إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (١) . . ومن أسرار التعبير فى الآية أنها لم تُعلِّق الطغيان على نفس الغنَى ، بل على رؤية الشخص ، واعتقاده فى نفسه أنه استغنى بماله عن غيره : ﴿ أَن رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ . . وكأبى لهب الذى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ (٢) . . وكأُبَىّ بن خلف : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ (٣) ، وفيه نزل : ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ (٤) . . وكالوليد بن المغيرة الذى نزل فيه وعيد الله : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَن أَزِيدَ * كَلا ، إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ (٥) ، وفى سورة أخرى قال فيه : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٦) .

ومن الأمثلة التى عنى القرآن بذكرها قصة قارون ، الذى ضرب الله به المثل فى الغنَى ، والذى غرَّه المال فأطغاه ، وبغى على قومه ، ونسى فضل ربه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) العلق : ٦ - ٧ (٢) المسد : ١ - ٢ (٣) الهمزة : ٢ - ٣
(٤) الليل : ٨ - ١١ (٥) المدثر : ١١ - ١٦ (٦) القلم : ١٤ - ١٥
(٧) القصص : ٧٦ - ٧٧

لقد نصحوه بنصائح خمس تجمع له خيرى الأولى والآخرة ، وهى وصايا لكل ذى ثروة من بعده ، ولكنه للأسف لم يصغ للنصيحة المخلصة ، وركبه شيطان العُجَب والغرور : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ (١) وبغى على قومه ، وانضم إلى عدوهم فرعون ، وكوَّن معه ومع وزيره « هامان » ثالوث الطغيان والفساد ، ودل على أن مصالح هذه الفئة من الناس أهم عندها من القوم والأهل وكل الاعتبارات التى يحرص عليها الشرفاء من الناس ، فلا غرو أن خسف الله به وبداره الأرض ، ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٢) .

* *

● الناس يتفاضلون بالأعمال لا بالأموال :

الناس إذن لا يتفاضلون بما يملكون من ثروات وأموال ، أو ما يتمتعون به من جاه أو سلطان ، وإنما يتفاضلون بما استكَنَّ فى قلوبهم من تقوى الله تعالى وخشيته ، والإخلاص له ، مهما يكن المرء صِفْر اليدين ، رث الثياب ، زرى الهيئة ، فإنَّ الله لا ينظر إلى الصور ، بل إلى القلوب .

روى البخارى عن سهل بن سعد قال : « مَرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك فى هذا » ؟ فقال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله حَرِىّ إن خطب أن يُنكَّح ، وإن شفع أن يُشفّع ، وإن قال أن يُسمع لقوله ، قال : فسكت النبى ﷺ ثم مَرّ رجلٌ آخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رأيك فى هذا » ؟ قال : يا رسول الله ؛ هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حَرِىّ إن خطب ألا يُنكَّح ، وإن شفع ألا يُشفَّع ، وإن قال ألا يُسمَع لقوله ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » (٣) .

---

(١) القصص : ٧٨ (٢) القصص : ٨١

(٣) رواه البخارى : ٩/١١٧ ، ١١/٢٣٦ عن سهل .

وروى مسلم في صحيحه عنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

وفى الصحيحين عن حارثة بن وهب أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبرَّه » (٢) ، والمراد بالضعف : ضعف الحال والمال ، ولهذا يستضعفه الناس ويحتقرونه ويفتخرون عليه ، مع أن له عند الله شأناً ، حتى لو حلف يميناً طمعاً فى كرم الله بإبراره لأبرَّ الله قسمه وحقق له سؤله .

وبهذا وأمثاله عدل النبى ﷺ موازينهم فى تقدير الأشخاص ، فلم يعد تقويمهم بما يملكون ، بل بما يعملون .

وكما يُمتحن الأفراد بالمال والغنَى وبسطة العيش ، يُمتحن به الجماعات والأُمم ، فإن رعت جماعة نعمة الله ، واستعملتها فيما وُهبت له ، وقامت بحقها ، أدام الله عليها النعمة ، بل زادها منها ، وإلا نزعها منها ، جزاءً وفاقاً : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (٣) ، ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (٤) .

ومن الأمثلة التى عُنِىَ القرآن بذكرها قصة « سبأ » ، وما أنعم الله به عليهم من رخاء ونعيم ، لم يفوا بحقه ، ولم يشكروا الله تعالى عليه ، فكانت عاقبتهم أن انهار سدَّهم ، وهلكت أموالهم ، وخربت ديارهم ، وتفرَّقوا فى الأرض تفرقاً ضُرب به المثل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢٥٦٤) .

(٢) رواه البخارى : ٨/٥٠٨ ، ومسلم (٢٨٥٣) .

(٣) إبراهيم : ٧ (٤) النحل : ١١٢

فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُواْ ، وَهَلْ نُجَازِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ ؟ (١) .

* *

● القِيَم المعنوية خير وأبقى :

ومع أن المال عنصر من عناصر قوة الأمم ، ومُقوِّم من مقوِّمات نهضتها وتقدمها ، به تحقق مشروعاتها ، وتزيد دخلها ، وترفع مستوى معيشة أبنائها ، وعلى قدر ما تملك منه وتستغل موارده الطبيعية ، يكون - إلى حد كبير - ازدهارها فى الداخل ، وهيبتها فى الخارج . . مع هذا كله فإن المال يصبح خطراً على الأُمَّة وعلى أبنائها ، وعلى مقوِّماتها الروحية والخُلُقية ، إذا انهمكت فى طلبه وجمعه والتنافس عليه ، وصار أكبر همها ، وغاية سعيها ، وخاصة إذا كانت أُمَّة ناشئة فى مرحلة التكوين ، أو كانت أُمَّة ذات رسالة فى الحياة ، وذات دعوة للإنسانية ، ومن هنا قال الرسول ﷺ لأصحابه فى أحد المواقف : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا ، كما بُسِطت على مَن كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » (٢) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : « إنَّ مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » (٣) .

وعنه : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن

---

(١) سبأ : ١٥ - ١٧

(٢) رواه البخارى : ١١/٢٠٨ ، ومسلم (٢٩٦١) عن عمرو بن عوف الأنصارى .

(٣) متفق عليه : رواه البخارى : ٣/٢٥٨ ، ومسلم (١٠٥٢) .

الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء » (١) .

واتقاءِ الدنيا هنا مثل اتقاء النساء المراد به : التنبه لفتنتها ، وليس اعتزالها ، إذ لا تبتل ولا رهبانية فى الإسلام .

وعن أنس : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللَّهم لا عيش إلا عيش الآخرة » (٢) .

ويُهوِّن النبى ﷺ من قيمة الدنيا إذا قُرِنت بالآخرة ، وقِيسَ عُمر هذه بعمر تلك ، ومتاع هذه بنعيم تلك ، فيقول : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أُصبُعه فى اليم (أى البحر) فلينظر : بم يرجع » ؟ (٣) .

وهذا ما جعل بعض السَلَف الصالحين يقول : لو كانت الدنيا ذهباً يفنى ، والآخرة خزفاً يبقى ، لآثرتُ الخزف الباقى على الذهب الفانى .

فكيف والآخرة أكبر وأغلى من الذهب ، والدنيا أقل وأدنى من الخزف ؟!

ويُحذِّر النبى ﷺ أُمَّته من أعظم فتنة فى الدنيا ، وهى فتنة المال ، الذى أغوى الكثيرين حبه والحرص عليه ، فأصمَّهم وأعمى أبصارهم ، وفى هذا يقول : « إن لكل أُمَّة فتنة ، وفتنة أُمَّتى المال » (٤) .

وفتنة المال ليست فى جمعه وكسبه من وجوهه المشروعة ، إنما هى فى حبه والحرص عليه حرصاً يجعله يكسبه من غير حِلِّه ، وينفقه فى غير محله ، ويبخل به عن حقه ، والشر كله من هذا نبع ، وهذا ما حذَّر منه الحديث :

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢) .

(٢) متفق عليه : البخارى : ٣٠٢/٧ ، ٣٠٣ ، ومسلم (١٨٠٥) .

(٣) رواه مسلم عن المستورد بن شداد (٢٨٥٨) .

(٤) رواه الترمذى عن كعب بن عياض ، وقال : حسن صحيح (٢٣٣٧) ، وابن حبان (الإحسان : ٢٤٧) ، والحاكم وصحَّحه : ٣١٨/٤ ، ووافقه الذهبى .

« ما ذئبان جائعان أُرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف (يعنى : الجاه والمنزلة) لدينه » (١) .

من أجل ذلك يُعلِّم الإسلام أبناءه أن المال ليس هو كل شىء فى الحياة ، بحيث يحصر الإنسان كل همه فيه ، وكل سعيه له ، وكل حماسه ونشاطه فى طلبه وجمعه ، بحيث لا يدع فى عقله وقلبه مكاناً للرغائب الكبيرة ، التى يجب أن ترنو إليها الأبصار ، وتشرئب نحوها الأعناق .

إن المُثُل الأخلاقية العليا،والقيَم الروحية الرفيعة ، من الإيمان والعمل الصالح والخُلُق الكريم ، هى الثروة التى لا تنفد ، والكنوز التى لا تفنى ، والباقيات الصالحات على مر الأعوام والأعصار ، ولهذا يوجِّه إليها القرآن همم المؤمنين وآمالهم ، بمثل قوله تعالى : ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (٣) ، وقوله فى قصة قارون : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** ﴾ (٤) ، وقوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ (٥) ، فرزق ربه هنا ليس هو الموعود به فى الجنة فحسب ، بل ما أنعم الله به عليه من معافى الإيمان ، ومنازل التقوى ، ومكارم الأخلاق ، وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم ، ويقول تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ**

---

(١) رواه الترمذى عن كعب بن مالك وقال : حسن صحيح (٢٣٧٧) ، وأحمد أيضاً : ٣/٤٥٦ (٢) الكهف : ٤٦ (٣) القصص : ٦٠
(٤) القصص : ٧٩ - ٨٠ (٥) طه : ١٣١

الشَّهَوَات منَ النِّسَاء وَالْبَنينَ وَالْقَنَاطير الْمُقَنطَرَة منَ الذَّهَب وَالْفضَّة وَالْخَيْل الْمُسَوَّمَة وَالأنعَام وَالْحَرْث ، ذَلكَ مَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا ، وَاللهُ عندَهُ حُسْنُ الْمَآب * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بخَيْر مِّن ذَلكُمْ ، للَّذينَ اتَّقَوْا عندَ ربِّهمْ جَنَّاتٌ تَجْرى من تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرضْوَانٌ مِّنَ الله ، وَاللهُ بَصيرٌ بالْعبَاد ﴾ (١) .

كما تُوجِّه السُّنَّة النبوية كذلك العقول والإرادات إلى طلب الآخرة ، وإيثارها على الدنيا ، واعتبار هذه الحياة مزرعة لدار الخلود ، يزرع الإنسان فيها اليوم ليحصد هناك غداً .

* *

● الحياة الاقتصادية الطيبة وسيلة إلى هدف أكبر :

إن الإسلام لا يغفل أبداً العنصر المادى ، وأهميته لعمارة الأرض ، وتقدم الإنسان ، وتحقيق الحياة الطيبة له ، وإعانته على القيام بواجبه نحو مَن خلقه فسوَّاه ، واستخلفه فى الأرض ، ولكنه يؤكد أبداً : أن الحياة الاقتصادية الطيبة وإن كانت هدفاً إسلامياً منشوداً ، فهى ليست الهدف الأخير ، بل هى فى الحقيقة وسيلة إلى هدف أكبر وأبعد ، وهذا فرق جوهرى بين المذهب الإسلامى والمذاهب المادية الأخرى ، من اشتراكية متطرفة ومعتدلة ، ورأسمالية مطلقة أو مقيَّدة .

إن تلك المذاهب المادية - من اليمين إلى اليسار - تقف بالإنسان عند إشباع شهوتى البطن والفَرْج ، ولا تتعدى نطاق المصالح الاقتصادية الدنيا ، إن الرفاهية المادية هدفها الأخير ، وفردوسها المنشود .

أما الاقتصاد الإسلامى فيجعل هدفه من وراء طيب الحياة ورغد العيش ؛ أن

---

(١) آل عمران : ١٤ - ١٥

يرقى الناس بأنفسهم ، ويسموا بأرواحهم إلى ربهم ، وألا يشغلهم الهم فى طلب الرغيف ، والانهماك فى معركة الخبز والإدام ؛ عن معرفة الله تعالى ، وعبادته ، وحُسن الصلة به ، والاستعداد لحياة أخرى هى خير وأبقى .

إن الناس إذا توافرت لهم كفايتهم ، وكفاية مَن يعولونه ، وأمنوا على أنفسهم وأرزاقهم ، أمكنهم أن يطمئنوا فى حياتهم ، ويتجهوا بالعبادة الخاشعة إلى ربهم ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف .

وعبادة الله - جَلَّ شأنه - هى الغاية الأُولى التى من أجلها ذرأ الله هذا الكون ، ونفخ الروح فى هذا الإنسان . . إن الإنسان لم يُخلق من أجل الاقتصاد ، ولكن الاقتصاد خُلِق من أجل الإنسان ، أما الإنسان فخُلِق لله تعالى ، ليتوجه بعقله وقلبه إليه ، وليجعل هواه تبعاً لأمره ، وليصوغ حياته وأوضاعه وسلوكه وفقاً لرضاه . وهذا هو المعنى الكبير للعبادة التى خلق الله لها الإنسان : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ (١) .

* * *

(١) الذاريات : ٥٦ - ٥٨

وَسَطية الإسلام فى قضية المِلْكية

كما اتضحت لنا وَسَطية الإسلام فى قضية المال ، بين الاتجاهات الزهدية المتطرفة ، والاتجاهات المادية المسرفة . . نجد هذه الوَسَطية واضحة كذلك فى قضية المِلْكية بين الغلاة من أنصارها الرأسماليين الذين يُقدِّسونها ، والغلاة من أعدائها الاشتراكيين الذين يقاومونها ، ويُحمِّلونها وزر كل فساد وقع فى التاريخ .

لقد أقرَّ الإسلام حرية التملك ، وحق المِلْكية الخاصة ، وجعلها أساس بنائه الاقتصادى ؛ إذا التزمت نطاقها المسموح لها به ، ووقفت عند حدود الله تعالى ، فاكتسبت من طرق حلال مشروعة معروفة فصَّلتها أحكام الشريعة ، ونميت كذلك بهذه الطرق الحلال المشروعة ، وقد فرض الإسلام على هذه المِلْكية حقوقاً وتكاليف وواجبات شتَّى ، منها : فريضة الزكاة ، ونفقات الأقارب ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة المضطر ، والمشاركة فى نوازل المجتمع مثل الجهاد بالمال ، والمعاونة فى تحقيق التكافل بين أفراده .

كما حرَّم الإسلام على المالك أن يستخدم المِلْك فى الإفساد فى الأرض أو الإضرار بالناس ، إذ « لا ضَرر ولا ضِرار » [1] ، أو تنمية المال بما يضر القِيَم والأخلاق ، من التجارة فى الأعيان المحرَّمة كالأصنام والخمر والخنزير والمخدرات وكل المواد الضارة بصحة الإنسان أو عقله أو دينه وخُلُقه .

ومن أهم ما نهى عنه الإسلام هنا نهياً عاماً مؤكداً : أكل الأموال بالباطل ، أى بغير مقابل شرعى من ثمن أو عمل ، أو هبة أو صدقة أو وصية أو ميراث، أو نحو ذلك مما يجيز أخذ المال .

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس ، وابن ماجه عن عبادة بن الصامت ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٧٥١٧) .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إلا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ، وَلا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ (١) .

ويقول عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

يقول الإمام القرطبى فى تفسير هذه الآية : « الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أُمَّه محمد ﷺ . والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق ، فيدخل فى هذا : القمار والخداع والغصوب (جمع غصب) ، وجحد الحقوق ، وما لا تطيب به نفس مالكه ، أو حرَّمته الشريعة - وإن طابت به نفس مالكه - كمهر البغى ، وحلوان الكاهن (ما يُعطَى له مقابل كهانته) وأثمان الخمور والخنازير ، وغير ذلك ، ولا يدخل فيه الغبن مع معرفة البائع بحقيقة ما باع ؛ لأن الغبن (أى مع علمه واختياره) كأنه هبة » (٣) ا هـ .

حتى لو حكمت له المحكمة بالمال ، وهو يعلم أنه لا حق له فيه ، فحكمها لا يحل له الحرام ، لأن القاضى يحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، وفى هذا جاء الحديث الصحيح : « إنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذ أو ليدع » (٤) .

فإذا كان قضاء رسول الله-ﷺ نفسه لا يحل الحرام لمن قضى له فى الظاهر ، فما بالك بغيره من القضاة ؟! إن قاضى المسلم هنا هو ضميره الذى يراقب الخالق قبل مراقبته المخلوقين .

* *

---

(١) النساء : ٢٩ (٢) البقرة : ١٨٨

(٣) تفسير القرطبى : ٢/٢٣٨ (٤) متفق عليه عن أم سلمة .

● **حماية الإسلام للملْكية الحلال وبخاصة ملْكية الضعفاء :**

إن الإسلام يتشدد كل التشدد فى اتباع طرائق التملك المشروع . . فإذا تم التملك بشرائطه الشرعية فإنه يقف إلى جوار المالك - بحدوده وقوانينه ووصاياه - يحمى ملْكيته أن يُعتَدى عليها ، أو على جزء منها بالقوة أو بالحيلة . . ويُنذر بعذاب الدنيا والآخرة كل مَن يتعدى على هذه الملْكية ، وخاصة إذا كانت ملْكية إنسان ضعيف ، وهذا سر ما نراه من عناية القرآن بملْكية اليتامى والنساء .

ففى شأن أموال اليتامى نجد الوصية بها ضمن الوصايا العشر فى سورة الأنعام من القرآن المكى ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ (١) ، وفى سورة الإسراء المكية (٢) كرر هذه الوصية نفسها ، تأكيداً لها ، وتنويهاً بأهميتها ، ومعنى : ﴿ **بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ : أى بالطريقة التى هى أحسن الطرق لحفظ المال وتثميره ، وكأن الله البر الرحيم لم يرض من عباده أن يسلكوا مُجرَّد الطريقة الحسنة لصيانة مال اليتيم وتنميته ، حتى يسلكوا الطريقة التى هى أحسن . وذلك لقطع الأطماع عن مال هذا الصغير الذى فقد الأب الذى يحنو عليه ويرعى شأنه . قال الإمام القرطبى فى تفسيره شاراحاً معنى ﴿ **بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ : « أى بما فيه صلاحه وتثميره ، وذلك بحفظ أصوله ، وتثمير فروعه » (٣) .

وفى سورة النساء من القرآن المدنى ، أنزل الله جملة آيات فى مطالع السورة ، توصى الناس عامة - والأوصياء خاصة - بأموال اليتامى بدأها بقوله تعالى : ﴿ **وَآتُواْ الْيَتَامَىٰٓ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً** ﴾ (٤) ، وختمها بهذا الوعيد الشديد :

---

(١) الأنعام : ١٥٢ (٢) الإسراء : ٣٤

(٣) انظر : تفسير القرطبى : ٧/ ١٣٤ ، طبع دار الكتب المصرية .

(٤) النساء : ٢

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ (١) .

هذه الآيات وأمثالها أقلقت ضمائر الصحابة رضى الله عنهم ، فانطلق كل مَن كان عنده يتيم ، فعزل طعامه عن طعامه ، وشرابه عن شرابه ، فجعل يفضل الشيء من اليتيم ، فيحبسه وليه له ، حتى يأكله ، وكثيراً ما يفسد ويتلف ، وفى ذلك خسارة على اليتيم وعلى الولى وعلى المجتمع ، فاشتد ذلك عليهم . . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله آية البقرة : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ، قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ، وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

أما عناية القرآن بما يملكه النساء ، فقد أكَّده القرآن ، خشية عدوان الرجال عليه ، كما كان الحال فى الجاهلية العربية ، وكما كان الحال عند كثير من الأُمم ، واستمر طرف منه إلى العصر الحديث .

يقول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وَآتُواْ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ (٣) ، فلم يبح للرجال من صداق النساء ، إلا ما طبن به نفساً ، فهن صاحبات الحق فيه .

وقال تعالى فى نفس السورة : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾ ؟! (٤) .

* *

● واجب الفرد فى حماية ملْكه من العدوان :

وهو بعد ذلك - يفرض على الإنسان أن يحمى ملْكه الحلال ولا يُفرِّط فيه لظالم أو غاصب ، ولو أدَّى ذلك إلى سل السيف وسفك الدم ، فمع أن

---

(١) النساء : ١٠ (٢) البقرة : ٢٢٠

(٣) النساء : ٤ (٤) النساء : ٢٠

حُرْمة الدم أعظم فى نظر الشريعة من حُرْمة المال - نجدها تبيح القتال لحماية المال ؛ لأن أمن المجتمع واستقراره رهن باحترام النظام الذى يقوم عليه ، والمِلْكية الخاصة جزء من النظام الإسلامى الذى شرعه الله للناس ، ورضيه أبناء المجتمع ، والتعدى على هذه المِلْكية بالقوة والقهر يزلزل كيان المجتمع كله ، ويهدد نظامه بالانهيار ، وروابطه بالانحلال ، والمتعدى على مِلْك غيره قد أهدر دم نفسه ، حيث تجاوز حدود الله ، وعدا على سلطان الشرع .

روى مسلم عن أبى هريرة قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : « فلا تعطه مالك » ، قال : أرأيتَ إن قاتلنى ؟ قال : « قاتله » ، قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال : « فأنت شهيد » ، قال : أرأيتَ إن قتلته ؟ قال : « هو فى النار » (١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن قُتِل دون ماله فهو شهيد » (متفق عليه) (٢) .

وبهذا لم يكتف الإسلام بحماية الدولة وحدها للمِلْكية ، بل أشرك الأفراد أيضاً فى وجوب حمايتها من كل معتد أثيم .

* *

● تشريع اللُّقَطة :

ومن أجل قداسة المِلْك وحُرْمته فى الإسلام ، اهتمت شريعته بـ « اللُّقطة » وفصَّلت أحكامها ، وأفرد لها باب أو كتاب خاص فى كل كتب الفقه الإسلامى على اختلاف مذاهبه ومدارسه ، واللُّقَطة هى المال الذى يضيع من مالكه ويلتقطه غيره ، سواء أكان نقوداً أم متاعاً أم حيواناً أو غير ذلك .

روى الشيخان عن زيد بن خالد قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث ذكره فى المشكاة عن مسلم برقم (٣٥١٣) .

(٢) الحديث رقم (٣٥١٢) فى المشكاة .

فسأله عن اللُّقَطة ، فقال : « اعرف عفاصها ووكاءها ثم عَرِّفها سنة فإن جاء صاحبها . . وإلا فشأنك بها » .

والعفاص : هو الوعاء الذى تكون فيه اللُّقَطة . والوكاء : الخيط الذى تُربط به . . أى عليه أن يعرِّف الأمارات التى تميزها ، فلا يُسلِّمها لكل مَن يدَّعيها ، بل مَن يصفها وصفاً دقيقاً ويذكر علاماتها .

ومعنى تعريفها سنة : أن يعلن عنها فى المجامع والمساجد والأسواق ، حتى يتعالم الناس أمرها ، عسى أن يبلغ ذلك صاحبها ، فيجىء الملتقط فيسأل عنها . .

وهذه كلها ضمانات لصيانة المال المملوك حتى لا يضيع على أربابه .

* *

● المِلْكية التى يحميها الإسلام :

ولكن ما المِلْكية التى يمنحها الإسلام حق الحماية ، ويُكلِّف المجتمع والأفراد الدفاع عنها ؟

إن الإسلام لا يحمى كل مِلْكية ولو جاءت من طريق حرام ، وإنما يبسط حمايته على المِلْكية إذا جاءت من طريق مشروع ، ولم تحرم لخلل فى جهة إثبات اليد على المِلْك ، وذلك أن أخذ المال - كما قال الإمام الغزالى - إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره .

فالذى يكون بغير اختياره كالإرث .

والذى يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنيل المعادن ، أو يكون من مالك .

والذى أُخِذ من مالك : فإما أن يؤخذ قهراً ، أو يؤخذ تراضياً .

والمأخوذ قهراً : إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم ، أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم .

والمأخوذ تراضياً : إما أن يؤخذ بعوض كالبيع والصداق والأجرة ، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية .

فيحصل من هذا السياق ستة أقسام :

الأول : ما يؤخذ من غير مالك كنيل المعادن ، وإحياء الموات ، والاصطياد ، والاحتطاب ، والاستقاء من الأنهار ، والاحتشاش ، فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذى حُرْمة من الآدميين ، فإذا انفك من الاختصاصات مَلَكها آخذها .

وتفصيل ذلك فى كتاب « إحياء الموات » .

الثانى : المأخوذ قهراً ممن لا حُرْمة له ، وهو الفيء والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين ، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخُمْس وقسموها بين المستحقين بالعدل ، ولم يأخذوها من كافر له حُرْمة وأمان وعهد .

وتفصيل هذه الشروط فى كتاب « السير » من كتاب الفيء والغنيمة وكتاب الجزية .

الثالث : ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع مَن وجب عليه فيؤخذ دون رضاه ، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق ، وتم وصف المستحق الذى به استحقاقه ، واقتصر على القدر المستحق ، واستوفاه مَن يملك الاستيفاء من قاض أو سطان أو مستحق .

وتفصيل ذلك فى كتاب « تفريق الصدقات » ، وكتاب « الوقف » ، و« النفقات » ، إذ فيها النظر فى صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة ، وغيرها من الحقوق ، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالاً .

الرابع : ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، وذلك حلال إذا روعى شرط العوضين ،

وشرط العاقدين ، وشرط اللفظين (يعنى الإيجاب والقبول) مع ما تعبَّد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة .

وبيان ذلك فى كتاب « البيع » ، و« السَّلَم » ، و« الإجارة » ، و« الحوالة » و« الضمان » و« القراض » و« الشركة » و« المساقاة » و« الشفعة » و« الصلح » و« الخلع » و« الكتابة » و« الصداق » ، وسائر المعاوضات .

الخامس : ما يؤخذ عن رضا من غير عوض ، وهو حلال إذا روعى فيه شرط المعقود عليه ، وشرط العاقدين ، وشرط العقد ، ولم يؤد إلى ضرر لوارث أو غيره .

وذلك مذكور فى كتاب « الهبات » ، و« الوصايا » ، و« الصدقات » .

السادس : ما يحصل بغير اختيار كالميراث ، وهو حلال ، إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدَّيْن ، وتنفيذ الوصايا ، وتعديل القسمة بين الورثة ، وإخراج الزكاة والحج والكفَّارة إن كان واجباً .

وذلك مذكور فى كتاب « الوصايا » و« الفرائض » .

فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أومأتُ إلى جملتها ، ليعلم المريد أنه إن كانت طعمته متفرقة لا من جهة معينة ، فلا يستغنى عن علم هذه الأُمور ، فكل ما يأكله من جهة من هذه الجهات ، ينبغى أن يستفتى فيه أهل العلم ، ولا يقدم عليه بالجهل ، فإنه كما يقال للعالِم : لِمَ خالفت علمك ؟ يقال للجاهل : لِمَ لازمت جهلك ولم تتعلم ؟ بعد أن قيل لك : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) .

لهذا كان تحرى الحلال الطيب فى التملك فرضاً دينياً على كل مسلم مثل

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى - الجزء الرابع - ربع العبادات ، كتاب « الحلال والحرام » ص ٩٤ ، طبعة عيسى الحلبى .

الصلاة والصيام ، بل إن العلماء يشدِّدون فى حقوق العباد أكثر مما يشدِّدون فى حقوق الله ، وهم يقولون فى ذلك : حقوق الله مبنية على المسامحة ، وحقوق العباد مبنية على المشاحة ، وهذا له أدلة كثيرة مبسوطة فى مواضعها .

* *

● رعاية حقوق الاستخلاف شرط لحماية المِلْكية :

على أن هناك شرطاً لا بد من توافره هنا وتأكيده ، وهو أن الإسلام إنما يعطى المِلْكية المشروعة نفسها حق الحماية والحصانة ، إذا حصَّنت هى نفسها ، فرعت شروط « الاستخلاف » فى « مال الله » الذى آتاها ، وفقاً للنظرية الإسلامية فى حقيقة تملك الفرد للمال ، فإذا أخلَّ صاحب المال بشروط الخلافة أو الوكالة الممنوحة له من الله فى المال ، فإن ماله يفقد عنصر الحصانة ، ويستحق من العقوبة ما هو أهل له .

وأول شروط الاستخلاف : أن يؤدِّى الحقوق الواجبة عليه فى ماله - أو فى مال الله عنده - إن أردنا دقة التعبير . وأول هذه الحقوق : الزكاة ، فهى الحق المعلوم الثابت ، الدورى اللازم فى كل الظروف والأحوال . فمَن أدَّاها - فى الظروف العادية - فقد حصَّن ماله ، وأذهب عنه الشر ، كما روى فى بعض الأحاديث : « إذ أديتَ زكاة مالك فقد أذهبتَ عنه شره » (١) .

ومَن أصرَّ على منعها ، فقد دلَّ على أنه ليس أهلاً للاستخلاف ، وبالتالى ليس أهلاً لحماية المِلْك ، وعرَّض نفسه لعقوبة شرعية قد تصل إلى حد أخذ نصف ماله تعزيراً وتأديباً ، كما فى حديث بهز بن حكيم مرفوعاً ، الذى

---

(١) رواه الحاكم عن جابر ، وصحَّحه على شرط مسلم : ١/ ٣٩٠ ، ووافقه الذهبى ، وهو من رواية ابن جريج عن أبى الزبير عن جابر ، وكلاهما مدلس ، ولم يُصرِّحا بالتحديث .

ذكر زكاة الإبل ثم قال : « ومَن منعها فإنَّا آخذوها وشطر ماله (أو وشطر إبله) عزمة من عزمات ربنا ، لا يحل لآل محمد منها شيء » (١) .

هذا هو وضع المِلْكية فى الإسلام ، فموقف الإسلام هو الموقف الوَسَط العدل ، بين الذين يقدسون المِلْكية مهما كان أصلها ، ومهما كان تصرف أصحابها ، وبين الذين يدعون إلى هدم المِلْكيات كلها ، دون تفريق ولا تمييز .

* *

● تقرير المِلْكية الجَماعية فى الأشياء الضرورية للناس :

ومن أهم ما جاء به الإسلام هنا : تقريره لنظام المِلْكية الجَماعية فى الأشياء الضرورية لجميع الناس .

ومن هنا أخرج الإسلام من نطاق المِلْكية الخاصة : الأشياء التى لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص ، ويكون جماهير الناس محتاجين إليها ، فجعل مِلْكيتها مِلْكية جَماعية عامة ، حتى لا يستبد بها فرد أو أفراد ، فيضار المجتمع من جرَّاء ذلك . وقد عدّ الرسول عليه الصلاة والسلام من هذا النوع أربعة أشياء هى : الماء والكلأ والنار والملح ؛ فقال : « المسلمون شركاء فى ثلاثة : فى الكلأ والماء والنار » (٢) ، وروى أبو داود أن رجلاً سأل النبى ﷺ ، فقال : يا نبىّ الله ؛ ما الشىء الذى لا يحل منعه ؟ فقال : « الماء » ، قال : يا نبىّ الله ؛ ما الشىء الذى لا يحل منعه ؟ قال : « الملح » (٣) .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم عن معاوية بن قرة ، وحسَّنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٤٢٦٥) ، وانظر : موقف الفقهاء من هذا الحديث ورأينا فيه فى كتابنا « فقه الزكاة » : جـ ١/ ٩٤ و ٢/ ٨٢٨ - ٨٣١ ، الطبعة الحادية والعشرين - مكتبة وهبة .

(٢) رواه أبو داود فى البيوع والإجارات ، بلفظ : « المسلمون شركاء . . . » الحديث (٣٤٧٧) عن رجل من المهاجرين من أصحاب النبى ﷺ قال : غزوتُ مع النبى ﷺ ثلاثاً أسمعه يقول : . . . . . الحديث .

(٣) رواه أبو داود قبل الحديث السابق (٣٤٧٦) .

والمراد بالكلأ - كما قال الإمام الخطابى - ما ينبت فى موات الأرض يرعاه الناس ، ليس لأحد أن يختص به دون أحد ، ويحجزه عن غيره ، وكان أهل الجاهلية إذا غزا الرجل منهم حمى بقعة من الأرض لماشيته ترعاها ، يذود الناس عنها ، فأبطل النبى ﷺ ذلك ، وجعل الناس فيها شَرَعاً (سواء) يتعاورونه بينهم . فأما الكلأ إذا نبت فى أرض مملوكة لمالك بعينه ، فهو مال له ، ليس لأحد أن يشركه فيه إلا بإذنه (١) .

والمراد بالماء : ماء الأنهار والعيون العامة ، التى لا تظهر بجهد خاص ، وليست محوزة فى صهريج أو بركة أو حب أو نحوها .

والمراد بالنار : ما ذهب إليه بعض العلماء : أنه الحجارة التى تورى النار ، يقول : لا يمنع أحد أن يأخذ منها حجراً يقتدح به النار .

فأما النار التى يوقدها الإنسان - فله أن يمنع غيره من أخذها ، وقال بعضهم : ليس له أن يمنع مَن يريد أن يأخذ منها حزمة من الحطب الذى قد احترق فصار جمراً ، وليس له أن يمنع مَن أراد أن يستصبح منها مصباحاً ، أو أدنى منها ضِغثاً يشتعل بها ؛ لأن ذلك لا ينقص من عينها شيئاً (٢) .

وقال بعض العلماء : المراد بالنار : مواد الوقود التى لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص ، كالحطب فى الغابات وبين الأشجار البرية غير المملوكة والذى تلقيه الريح فى فلاة ونحوها .

والمراد بالملح : النوع الذى يظهر وحده فى الجبال والصحارى ونحوها ، ويمكن الحصول عليه بدون جهد ومشقة ولا معالجة خاصة ، وليس منه الملح الذى يُستخرج من الملاحات بمعالجات خاصة .

وإنما خصَّت الأحاديث هذه الأشياء الأربعة ؛ لأنها كانت من ضروريات الحياة الاجتماعية فى البيئة العربية فى عهد النبوَّة ، والضروريات فى حياة الجماعة تختلف باختلاف البيئات والعصور ، والقياس - وهو أحد الأصول

---

(١) ، (٢) انظر : معالم السنن للخطابى - مع أبى داود : ٣/ ٧٥١

المهمة ، والأدلة المعتبرة فى التشريع الإسلامى - ينفسح لسواها عند التطبيق مما تتوافر فيه صفته .

ولهذا قاس الفقهاء على هذه الأشياء الأربعة المنصوص عليها : كل المعادن الظاهرة مما يتوافر فيه أمران : ضرورة الناس إليه ، وسهولة الحصول عليه ، أى لا يحتاج إلى جهد ومعاناة فى تحصيله .

ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو عبيد وغيره عن أبيض بن حَمَّال : أنه استقطع رسول الله ﷺ الملح الذى بمأرب (أى طلب منه أن يقطعه له) فقطعه له ، فلما ولّى ، قيل : يا رسول الله ؛ أتدرى ما قطعتَ له ؟ إنما أقطعته الماء العِدّ ، فرجعه منه (١) .

والماء العِدّ : الدائم الذى لا ينقطع . شبه الملح بالماء العِدّ ، لعدم انقطاعه ، وحصوله بغير كد ولا عناء .

وفسَّر أبو عبيْد إقطاعه الملح لأبيض ثم ارتجاعه منه بقوله : إنما أقطعه وهو عنده أرض موات ، يحييها أبيض ويعمرها ، فلما تبين للنبى ﷺ أنه ماء عدّ - وهو الذى له مادة لا تنقطع ، مثل ماء العيون والآبار - ارتجعه منه ؛ لأن سُنَّة رسول الله فى الكلأ والنار والماء : أن الناس جميعاً فيه شركاء ، فكره أن يجعله لرجل يحوزه دون الناس (٢) .

وذكر الإمام الخطابى أن المعدن الظاهر الموجود خيره ونفعه لا يقطعه أحد . قال : وفيه من الفقه أن الإمام إذا تبين الخطأ فى حكمه نقضه ، وصار إلى ما تبين من الصواب فى الحكم الثانى (٣) .

---

(١) رواه أبو عبيد فى الأموال واللفظ له بتحقيق محمد حامد الفقى ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ورواه كذلك أبو داود فى الخراج والإمارة (٣٠٦٤) ، والترمذى فى الأحكام واستغربه (١٣٨٠) ، وابن ماجه فى الرهون (٢٤٧٥) .

(٢) الأموال ص ٢٨٢ (٣) انظر معالم السنن للخطابى مع أبى داود : ٣/٤٤٦

وقال العلامة السندى فى شرح الحديث عند ابن ماجه : أعطاه الملح أولاً ، ظناً منه أنه معدن يحصل منه الملح بعمل وكد ، فلما ظهر خلافه رجع . . وفيه دليل على أن المعادن إذا كانت ظاهرة يحصل المقصود منها من غير تعب وكد لا يجوز إقطاعها ، بل الناس فيها سواء كالمياه والكلأ (١) .

وكما لا يجوز إقطاع المعادن الظاهرة التى هى بمنزلة الماء العِدّ ، لا يجوز أيضاً أن تُملَّك بالإحياء ، وهذا متفق عليه بالنسبة للمعادن الظاهرة .

قال ابن قدامة فى المغنى : « وجملة ذلك : أن المعادن الظاهرة - وهى التى يوصل إلى ما فيها من غير مؤنة - ينتابها الناس وينتفعون بها ، كالملح ، والماء ، والكبريت ، والقير (أى الزفت) ، والمومياء (٢) ، والنفط ، والكحل ، والبرام (٣) ، والياقوت ، ومقاطع الطين ، وأشباه ذلك ، لا تُملَّك بالإحياء ، ولا يجوز إقطاعها لأحد من الناس ، ولا احتجازها دون المسلمين ؛ لأن فيه ضرراً بالمسلمين ، وتضييقاً عليهم ، ولأن النبى ﷺ أقطع أبيض بن حَمَّال معدن الملح ، فلما قيل له : إنه بمنزلة الماء العِدّ رَدَّه ، كذا قال أحمد . وروى أبو عبيد ، وأبو داود ، والترمذى ، بإسنادهم ، عن أبيض بن حَمَّال ، أنه استقطع رسول الله ﷺ الملح الذى بمأرب ، فلما ولى ، قيل : يا رسول الله ؛ أتدرى ما أقطعتَ له ؟ إنما أقطعت له الماء العِدّ ، فرجعه منه ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ ما يُحمَى من الأراك ؟ قال : « ما لم تنله أخفاف الإبل » ، وهو حديث غريب . وروى فى لفظ عنه ، أنه قال : « لا حِمَى فى الأراك » . ورواه سعيد ، فقال : حدثنى إسماعيل ابن عَياش ، عن عمرو بن قيس المأربى ، عن أبيه ، عن أبيض بن حَمَّال

---

(١) انظر : حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٦١ ـ نهظة مصر الخامسة .

(٢) المومياء : مادة تجمد فتصير قاراً تفوح منه رائحة الزفت المخلوط بالماء ، تلطخ به أجساد الموتى حتى تحفظ ولا تتغير (الجامع لمفردات الأدوية : ٤/٦٩) .

(٣) البرام : القدور من الحجارة .

المأربى قال : استقطعتُ رسول الله ﷺ معدن الملح بمأرب ، فأقطعنيه ، فقيل : يا رسول الله ؛ إنه بمنزلة الماء العدِّ ، يعنى أنه لا ينقطع ، فقال رسول الله ﷺ : « فلا إذن » ، ولأن هذا تتعلق به مصالح المسلمين العامة ، فلم يجز إحياؤه ، ولا إقطاعه ، كمشارع الماء ، وطرقات المسلمين » .

وقال ابن عقيل : « هذا من مواد الله الكريم ، وفيض جوده الذى لا غناء عنه ، فلو مَلَكه أحد بالاحتجاز ، مَلَك منعه ، فضاق على الناس ، فإن أخذ العوَض عنه أغلاه ، فخرج عن الموضع الذى وضعه الله ، من تعميم ذوى الحوائج من غير كُلْفَةٍ . وهذا مذهب الشافعى ، ولا أعلم فيه مخالفاً » .

قال ابن قدامة : « فأما المعادن الباطنة ، وهى التى لا يوصل إليها إلا بالعمل والمؤنة ، كمعادن الذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والبلُّور ، والفيروزج ، فإذا كانت ظاهرة ، لم تُمْلَك أيضاً بالإحياء ، لما ذكرنا فى التى قبلها ، وإن لم تكن ظاهرة ، فحفرها إنسان وأظهرها ، لم يملكها بذلك ، فى ظاهر المذهب ، وظاهر مذهب الشافعى ، ويحتمل أن يملكها بذلك . وهو قول للشافعى ؛ لأنه موات لا ينتفع به إلا بالعمل والمؤنة ، فمُلِكَ بالإحياء ، كالأرض ، ولأنه بإظهاره تهيأ للانتفاع به ، من غير حاجة إلى تكرار ذلك العمل ، فأشبه الأرض إذا جاءها بماء أو حاطها ، ووجه الأول ، أن الإحياء الذى يملك به ، هو العمارة التى تهيأ بها المحيى للانتفاع من غير تكرار عمل ، وهذا حفر وتخريب ، يحتاج إلى تكرار عند كل انتفاع » [1] .

واختلف الفقهاء أيضاً فيما إذا ظهر المعدن فى أرض مملوكة ، هل يملكه صاحبها ؟ أو لا ؟

والرأى الذى نرجحه هنا : ما عُرِف فى مذهب مالك : أن ما يخرج من باطن الأرض من فلزّات أو سوائل يكون ملكاً لبيت مال المسلمين ، أى

---

(١) المغنى لابن قدامة : ٨/ ١٥٥ ، ١٥٦ ، بتحقيق التركى والحلو .

للدولة ، لأن مصلحة الأُمَّة أن تكون هذه الأموال لمجموعها لا لآحادها ، لأن هذه المعادن قد يجدها شرار الناس ، فإن تُرِكت لهم أفسدوا ، وقد يؤدى التزاحم عليها إلى التقاتل وسفك الدماء ، فَجُعلت تحت سلطان ولى الأمر النائب عن المسلمين ، ينفق غلّاتها فى مصالحهم (١) .

وعلى هذا ، لو عثر فرد أو مجموعة أفراد - شركة أو هيئة - على شىء من هذه المعادن من حديد أو بترول ، أو نحاس أو نحوها ، لا يتملكونه ، ويكون مِلْكاً للجماعة كلها ، أى للدولة ، لأن مالك الأرض إنما يملك ما تُستعمل فيه عادة من الزرع والبناء ، وليس استخراج المعادن من الانتفاع المعتاد فيها ، ولأن المعادن وديعة الله فى الأرض ، فتكون لكل خلقه ، لا يختص بها إنسان دون آخر ، ولأنها من الأمور ذات النفع العام ، فهى تشبه الأمور التى ذكر الرسول ﷺ أنه لا يصح أن يستأثر أحد بملكيتها ، ولأنها لا توجد إلا فى مواطن خاصة ، فلو أجيز تملكها تملكاً فردياً ، لنال الناس من وراء ذلك ضرر كبير (٢) .

وهذا الرأى يتفق مع روح الشريعة الإسلامية فى الموازنة بين حقوق الأفراد ومصالح الجماعة .

كما يدخل فى نطاق المِلْكية الجَماعية ممتلكات الأوقاف الخيرية ، الزراعية والعقارية ، التى تميَّز بها المَسلمون منذ عصر النبوة والصحابة ، وسائر عصور الحضارة الإسلامية ، من مساجد للعبادة ، ومدارس للتعليم ، ومستشفيات للعلاج ، ودور للأيتام ، وسُبُل لأبناء السبيل ، وربط للصوفية ، ومحلات ودكاكين وأرض زراعية للإنفاق على هذه الأمور ونحوها .

* * *

---

(١) من محاضرة الأساتذة عبد الوهاب خلاف ، ومحمد أبو زهرة ، وعبد الرحمن حسن فى حلقة الدراسات الاجتماعية عن الزكاة والوقف ونفقات الأقارب - الدورة الثالثة ص ٢٥٠ .

(٢) من كتاب الدكتور على عبد الواحد وافى السابق ذكره ص ٦٢ .